

هـذا الكتاب

رجال تعطرت بأنفاسهم الدنيا ، وتجمل بهم تاريخ الانسانية ، وفاقوا الملائكة فى السمو وعلو المدارك .

ان المدنية لا تدين لأى طائفة من طوائف البشر كما تدين الطائفة الربانية ، انها تدين لها فى حياتها وبقائها ، وفى شرفها وكرامتها ، وفى اعتدالها وسدادها فلولاهم صلى الله عليهم وسلم لغرقت سفينة الانسانية بما فيها من علوم وتراث حضارى وفلسفة وحكمة ، ولتحولت الأجيال البشرية الى قطعان من السائمة او الوحوش ، لا تعرف ربا ، ولا تعرف دينا ولا خلقا ولا تعرف رحمة ولا محبة ، ان كل ما يوجد فى هذا العالم من المعانى الانسانية الكريمة ، والأحاسيس الرقيقة اللطيفة ، والأخلاق العالية الفاضلة والعلوم الصحيحة النافعة ، ومن القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد ، انما يرجع فضله وينتهى تاريخه الى وحى السماء ، وتعليمات الأنبياء ، وتبليغهم ودعوتهم وجهادهم ، والى اصحابهم وتابعيهم باحسان ، ومازال العالم ولا يزال يمشى فى ضوئهم ويعيش فى البناء المحكم الذى بنوه .

حسين عاشور

٤٠ ص

الطبعة الرابعة

١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م

أبو الحسن الندوي

النبوة والأنبياء في ضوء القرآن

المختار الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب ١٧٠٧ القاهرة
هاتف ٩٣٦٤٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، أما بعد ، فقد تلقيت فى شعبان عام ١٣٨٢ هـ برقية من نائب رئيس الجامعة الاسلامية فى المدينة المنورة صاحب الفضيلة الشيخ عبد العزيز ابن عبد الله بن باز ، يدعونى كأستاذ زائر لهذه الجامعة ، ويقترح على القاء محاضرات على طلبتها الذين قصدوا هذه الجامعة من انحاء العالم الاسلامى ، وقد قبلت شاكرا هذه الدعوة الكريمة ، ورأيت انها فرصة سانحة يجب أن تنتهز للتحدث الى هذه المجموعة الطيبة من الشباب الاسلامى ، التى يتعسروجودها فى مكان واحد ، ولغرس معان كريمة فى قلوب هذه الناشئة الصافية فى بلد طيب يخرج نباته باذن ربه .

وكان الموضوع الذى آثرته لهذه المحاضرات « النبوة والأنبياء فى ضوء القرآن » ولم يكن موضوعا مرتجلا ولا من سوانح الآراء ، انما هو موضوع كان يجول فى خاطرى منزمن طويل ، وأرى معالجته والحديث عنه من أهم البحوث والدراسات التى تشتد حاجة الطبقة المثقفة اليها ، وأعتقد أن أقوى سبب انحراف هذه الطبقة الموجهة للشعوب الاسلامية عن الجادة ، وتخليها عن روح الاسلام الصحيحة ، وخضوعها الزائد للمفاهيم والقيم

المادية المنافية لروح الديانات السماوية ، وتمسكها بالأساليب الصناعية والمناهج الفكرية الغربية ، حتى فى تفسير الاسلام وفى حقل الدعوة والاصلاح العام ، هو بعدها عن منهج النبوة ، وجهلها لقيمتها وفضلها على الحياة والمدنية والعقل الانسانى ، وشدة حاجة الانسانية فى جميع أدوارها الى قيادتها . وكذلك غفلتها عن سير الأنبياء والرسل وطبائعهم وأخلاقهم .

جاءت هذه الدعوة الكريمة من جهة كريمة ، فأثارت هذا الشعور الكامن وهيأت الفرصة المناسبة والدوافع النفسية القوية للتفرغ لهذا الموضوع ، الذى لولا هذه الدعوة ولولا هذا الدافع القريب لتأجل الى وقت آخر ، كما تتأجل مواضيع أخرى تتغلب عليها وتشغل عنها حاجات مؤقتة أو أعمال رتيبة تملأ فراغ الوقت وتشغل الخاطر ، ورأيت أن خير مكان للحديث عن هذا الموضوع الجليل هو المدينة المنورة التى حصل فيها آخر اتصال السماء بالأرض لهداية البشرية عن طريق الوحى والنبوة .

وكتبت أكثر هذه المحاضرات فى رمضان (١٣٨٢ هـ) فى قريتى الصغيرة(١) المنعزلة البعيدة عن كل مكتبة ، واعتمدت فيها على القرآن الكريم ، وأسستها على دراسته والتدبر فيه ، وكنت أطلب أحيانا بعض المصادر التى أنقل منها بعض العبارات — شرحا لفكرة أو تأييدا لقول — من مكتبة ندوة العلماء العظيمة فى لكهنؤ ، وجاءت ست محاضرات لكل محاضرة عنوان خاص ، وزدت اليها شيئا يسيرا .

وصلت الى المدينة المنورة فى آخر شوال (عام ١٣٨٢ هـ) وبدأت المحاضرات فى ذى القعدة وكانت تلقى مرتين فى الاسبوع فى قاعة المحاضرات فى الجامعة الاسلامية بعد صلاة العشاء ، يمهد لها الأستاذ عطية محمد سالم مدير الشؤون التعليمية فى الجامعة

(١) زاوية جدنا الكبير الشيخ علم الله الحسنى النقشبندى فى راى بريلى .

ويعلق عليها فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز نائب رئيس الجامعة ، ويحضرها — غير الطلبة — عدد من أعيان المدينة ورجال الثقافة وأساتذة الجامعة .

وها نحن أولاء ننشر هذه المحاضرات مجموعة فى كتاب ، لا نزعم أنها بحوث مبتكرة أو فتح جديد فى العلم والتحقيق ، ولكنها اثارة فكر ، واثارة شعور ، وخطوط عريضة لبحث أكثر تركيزا ، وكتاب أوسع مادة ، وقد تعمدت الأسلوب الأدبى والاجتماعى الخفيف ، وتجنبت أسلوب علم الكلام والعقائد العميق الثقيل ، ولكن رغم ذلك قد احتوت على حقائق واشارات تطلب التفكير العميق ، وتستدعى البحث الدقيق ، فى المجتمع الاسلامى المعاصر ، الذى هو فى طور انتقال وتصميم ، ويواجه صراعا عنيفا بين القيم والمفاهيم ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

— المجمع الاسلامى العلمى —
ندوة العلماء ، لكهنؤ (الهند)
لخمس خلون من محرم الحرام
١٣٨٣ هـ

المحاضرة الاولى

النـــــبوّة

حاجة الإنسانية اليها وفضلها على المدنية

حديث من وحى المكان :

سادتى ! ان أليق حديث بهذا المكان الذى نجتمع فيه ، حديث عن النبوة ، وحاجة الانسانية اليهـا وفضلها على المدنية ، وعن السادة الذين أكرمهم الله بها ، وعن عظيم منزلتهم عنـد الله ، وكبير فضلهم على الخلق ، وعميق أثرهم فى الحياة ، وعن امامهم وخاتمهم الذى خصه الله بالرسالة الأخيرة والنبوة العامة الدائمة ، والامامة الخالدة والشريعة البـاقية والكتاب المحفـوظ ، وحصر سعادة الانسانية على اختلاف طبقاتها وعصورها على الايمان به واتبـاعه ، وآثر هذا البلد الطيب بأن يكون مهجـره ومثـواه الأخير ، وهنا حصل آخر اتصال السماء بالأرض لاوحى والرسالة ، وعلى من يمنح فرصة الحديث فى هذا المكان الكريم وتساق اليه هذه الكرامة أن يتقى الله ويستحى أن يكون له حـديث آخـر

غير هذا الحديث الذى هو من وحى المـكان ، وفيض الايمـان واستجابة لشعور الحسن والاحسان .

ولمـا نزلنا منزلا طله النـدى   أنيقا وبستانا من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسـنه   منى ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

مهمة الجامعة الأساسية :

ومهمة كل مدرسة تقوم فى الاسلام — فضـلا عن أن تقوم فى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم — ان تعنى قبل كل شىء بفهم نعمة النبوة التى هى أنزل الله نعمة أعظم منها ، وتعنى بقدرهـا وشكرها وتجتهد أن تكون من أنصارها ودعاتها ، وأن تنضم الى معسـكرها ولوائها فى معترك الحيـاة الذى انتشرت فيه ألوية الجاهلية ورايات الردة والثورة ، وأن تنتصر لها فى مجالات الحياة كلها ، من فكرية واعتقادية ، الى عملية وتطبيقية ، ومن خلقية واجتماعية ، الى مدنية وسياسية ، وأن يكون شـعار أبنائهـا ومتخرجيها الدائم وهدفهم الأسمى ايثار النبوة ومنهاجها على كل فلسفة ومنهاج وعلى كل منحى وطريق ، وعلى كل أسلوب من التقدير وعلى كل لون من الحياة ، وطراز من المدنية وقسم من أقسام المجتمعات البشرية ان هذه المهمة الأساسية هى أهم وأقدم من دراسـة جميع العلوم والمواد التى تعنى المدارس والجـامعات الاسلامية بدراستها والتوسع فيها ومن الشعارات التى تدين بها وتهتف ، فان المعركة الخالدة الحاسمة الحقيقية لم تزل ولا تزال بين الجاهلية والنبوة — التى يمثلها الاسلام فى هذا الزمان — وكل معركة غيرها معركة شكلية أو معركة داخلية ، كما قـد يتقاتل أفراد أسرة واحدة على شىء تافه ، أو كما قد يتصـارع الأطفال لقصر نظرهم ، أما المعركة المبدئية الدائمة فهى معركة الجاهلية والنبوة .

لذلك أيضا كان الحديث أولى بأن يكون الحـديث الأول فى الجامعة الاسلامية التى تقوم فى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ظئر الاسلام ومأزر الايمان ومهبط الوحى ، ونهاية المطاف فى رحلة النبوة الطويلة وتاريخها السامى .

حاجة العصر الى هذا الحديث :

لقد اشتدت الحاجة الى هذا الحــديث فى كل مكان ، وفى كل مجمع علمى ، وفى كل جامعة كبيرة ، اشتدت الحاجة اليــه فى جامعات أوروبا وفى ندواتها العلمية وفى هيئــة الأمم ، وفى منظمة الثقافة العالمية ، فليس شقاء الانسانية وأزمة المدنية الحاضرة — مع تملكها لجميع أسباب السعادة والسلام والرفاهية والهناء — الا بثورة قادتها على تعليمات النبوة والأنبياء وتخطيطهم للمدنية والحيــاة على غير الأسس التى جاء بهــا الأنبياء والمرسلون ، واستغنائهم — وبالأصح استكبارهم — عن ما أكرم الله به النبى العربى الأمى وقولهم بلسان حــال أو مقال : أبشر يهدوننا ؟ ! أأمى جــاء يعلمنا ؟ ! أفقير يحاول اسعادنا ؟ ! أبدوى يريد أن يمدننا ؟ !

ولكننا اذا عجزنا بسوء الحظ — أيها السادة — أو لم تسمح الظروف بعد عن أن نتحدث بهذا الحديث فى جامعات أوروبا وأمريكا وفى جامعات آســيا المدنية فلا يجــوز أن نعجز عنه فى الجامعة الاسلامية فى المدينة المنورة ، وكانت المدينة دائما حقــل النواة الكريمة ، والبلد الطيب الذى يخرج نباته باذن ربه ، وتقول كلمتها فيردد صداها العالم .

النظر الى النبوة والأنبياء من خلال القرآن :

لقد نظر علم الكلام أو علم التوحيد — وأرجو عدم المؤاخذة — الى النبوة والأنبياء بنظر قاصر محدود ، واعتبرها عقيدة جامدة محدودة لا صلة لها بالحياة الا فى دائرة ضيقة محدودة من العقائد ، ولعلم التوحيــد بعض العذر فى وضعه العلمى المحدود ورسالته التعليمية الخاصة . اذن يجب علينا أن ننظر الى النبوة والأنبياء من خلال القرآن وبمنظار القرآن ، ونستعرض كتاب الله الحكيم لنعرف مداها وآفاقها الواسعة ، وأعماقها الغــائرة وجذورهــا العميقة فى الحياة الانسانية ، وسيطرتها على العقول والنفوس ،

والأخلاق والميول ، وتأثيرها فى تكوين السير وتشكيل المجتمعات ، وقيادتها للمدنيات ، بل تأسيسها لحضــارة خاصة متميزة فى كل شىء ، موازية للجاهلية ، مقابلة لها على طول الخط .

حديث أثير حبيب :

اننا نقرأ القرآن لهذا الغرض فتطالعنا قطع ونماذج وصور لم يخلق الله أجمل منها فى هذا الكون ، وهى أجمل ما فى مجموع الصور البشرية بالاطلاق ، ونرى أسلوب القرآن فى الحديث عنهم أسلوبا يتدفق بالحياة ، ويفيض بالبشر ، وينم عن الحب والايثار ، وكأنه حــديث أثير حبيب عن أثير حبيب ، فليتسع وليتشعب وليطــل وليتنوع ، ولا يتوقف ولا ينقطــع ، وكل من رزق الذوق السليم والشعور بالجمال وعاطفة الحب ، استلذ بهذا الحديث وتذوق هذا الأسلوب ، اقرؤوا معى قوله تعالى :

« ان ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وانه فى الآخرة لمن الصالحين ، ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين(1) » .

واقرؤوا معى كذلك قوله تعالى :

« وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، ان ربك حكيم عليم ، ووهبنا له اســحق ويعقوب وكلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى والــيــاس كل من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ، ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم . ذلك هــدى الله يهدى به من يشاء من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم مــا

(1) النحل ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ .

كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتـــاب والحكم والنبوة ، فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين(١) » .

صفوة الخلق والمثل الكامل للانسانية :

ويذكرهم القرآن تارة بالاصطفاء والاجتباء ، وطـورا بالحب والرضا ، وتارة بأسمى الصفات والمواهب العقلية والخلقيـة والعملية ، كل يدل على أنهم صـفوة الخلق ، والمثـل الكامل للانسانية ، ومن أقوى البشر وأجـدرهم بحمـل رسالات الله ، ودعوة الخلق الى الله « الله أعلم حيث يجعل رسالته (٢) » ويقول عن ابراهيم « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين(٣) » ويقول « واتخذ الله ابراهيم خليلا(٤) » ويقـول « وتركنا عليه فى الآخرين ، سلام على ابراهيم كذلك نجزى المحسنين ، انه من عبادنا المؤمنين(٥) » ويقول : « ان ابراهيم لحليم أواه منيب(٦) » ويقول عن اسماعيل « وكان عند ربه مرضيا(٧) » ويقول عن موسى « واصطنعتك لنفسى(٨) » ويقول « وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى(٩) » ويقول « انى اصـطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى(١٠) » ويقول عن داود « واذكر عبدنا داود ذا الأيد انه أواب(١١) » ويقول عن ابنه سليمان « نعم العبد انه أواب(١٢) »

(١) الانعام ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) الانعام ١٢٤ .
(٣) الانبيـاء ٥١ .
(٤) النســاء ١٢٥ .
(٥) الصافات ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ .
(٦) هود ٧٥ .
(٧) مريم ٥٥ .
(٨) طـه ٤١ .
(٩) طـه ٢٩ .
(١٠) الاعراف ١٤٤ .
(١١) ص ١٧ .
(١٢) ص ٣٠ .

وكذلك يقول عن النبى أيوب ، ويذكر جماعة من الأنبياء المكرمين ، فيتحدث عنهم فى اختصاص وايثار ، وحب واكرام ، وينعتهم بأفضل النعوت « واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ، انا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وانهم عندنا لمن المصطفين الأخيـار ، واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار(١) » .

وقد استرسلت فى هذا الحديث — والحديث لذيذ — مع معرفتى أنكم تقرؤون القرآن وتدرسونه دراسة علمية ، وليس ما أتلوه عليكم جديدا عليكم أو غريبا عنكم ، وانما فعلت ذلك لأستحضر لأذهانكم منزلة الأنبياء عند الله ومقامهم الرفيع الحبيب ، ولهج القرآن بذكرهم ، ووصفهم بأفضل الصفات وأزكى النعوت ، وأكرم الأخلاق ، وأشرف السجايا ، وأغنى المواهب .

تصوير النبوة والمثل الحكيم :

ما مركز النبوة والأنبياء فى هذه الحيـاة التى تعتمد — فى استقاء معلوماتها وقضاء أغراضها — غالبا على الحواس الانسانية والعقل الموهوب ، وتجـد فيها الكفاية والغناء والأمانة والوفاء ؟ وما هى ميزة الأنبياء بين جماعات العلماء وطوائف العقلاء ؟ ولمـاذا لهم الحق أن يتحدثوا — هم وحدهم — عن أشياء ، ويتقدموا بأنباء لا تتناولها الحواس القوية والعقول النافذة ، وهم جميعا أبناء بيئة واحدة ، وواقفون على صعيد واحد ؟ لمـاذا يرون مالا يراه العمالقة من أقرانهم ، والنبغاء العبقريون من معاصريهم وجيرانهم ثم يأتى ذلك مثل فلق الصبح ، وتتحقق نبواتهم .

هذا سؤال طبيعى ساور النفوس عند كل بعثة نبوة جديدة ، وكان لابد من مواجهته يوم أكرم رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سورة ص ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ .

بالنبوة وأمر بالانذار وتبليغ الرسالة ، وكان الموقف الذى وقفه خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم من هذه المشكلة معجزة كبيرة من معجزاته الخالدة فى الحكمة والدعوة والحجة والبيان .

عاشت الأمة العربية — وسكان هذا الوادى بصفة خاصة — مدة طويلة بعيدة عن المفاهيم الدقيقة ، والمصطلحات العلمية ، والبحوث اللاهوتية ، ولكنها فاقت وتميزت بسلامة فهمها وسرعة ادراكها ، وحبها وخضوعها للواقع ، وعلى ذلك اعتمد الرسول صلى الله عليه وسلم فى شرح مركز النبوة والنبى فى هذه الحياة ، وتبرير حقه فى الانذار والأنباء ، ومخالفة المألوف المعروف المشاهد بالعيان ، والاخبار بما لا يراه الانسان ، فكان أبلغ من ألف دليل يستند اليه أئمة الكلام وعلماء اللاهوت .

وكانت جميع المراحل التى اجتاز بها الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وجميع الوسائل التى اتخذها واستخدمها فى هذه المهمة المقدسة الدقيقة مطابقة للطبيعة والبيئة ، وهكذا الأنبياء لايلتجئون — فى أداء مهمتهم وتبليغ رسالاتهم الى الصناعة والتكلف ، والاستعارة والاستيراد ، ويكونون من التافه الموجود الشىء العظيم المفقود .

لم يكن ذلك عصر الصحافة والاذاعة ، وعصر آلات نشر الصوت وتضخيمه ، فما هو السبيل الى « حشر » سكان الوادى الى مكان مخصوص فى زمن مخصوص ، وما هو السبيل الى السيطرة على عقولهم ونفوسهم حتى ينفضوا أيديهم من اشغالهم وملذاتهم، ويخفوا الى مكانه فزعين مسرعين ؟

كان الرسول عربيا يعرف عادات العرب وتقاليدهم ، وشعاراتهم وتأثيرها فى نفوسهم ومجتمعهم فاستعان بذلك فى سبيل هذه الغاية التى لا غاية أفضل منها .

اعتاد العرب اذا أحس أحد منهم بخطر ، أو بعدو يريد أن يفاجىء ويأخذ القوم على غرتهم ، أو بعدو كامن قاعد بالمرصاد ، قد غفل عنه أهل البلاد ، أن يرتقى أحدهم قمة جبل او ربوة ويصرخ بأعلى صوته « يا صباحاه » فيفزع القوم ويأخذون عدتهم ويخرجون على بكرة أبيهم ، لمواجهة الخطر الداهم والعدو المهاجم .

وما هو هذا الخطر الذى كان يقلق مضاجعهم ويحول بينهم وبين راحاتهم ولذاتهم وما مدى تأثيره وضرره فى حياتهم ؟

عدو يقتل منهم الكثير ، وينهب أموالهم ويستاق أبلهم وماشيتهم ، ويلحق بهم الأضرار .

هانت هذه الأخطار والأضرار — على ضخامتها وواقعيتها — فى عيون الأنبياء والرسل الذين عرفوا خطر الجهل لصانع هذا الكون ومدبره، وصفاته الحقيقية وحقوقه ، وخطر الحياة الجاهلية التى كان يعيشها أهل ذلك العصر وسكان هذا الوادى ، وضرر المعاصى والأخلاق التى اتسم بها هذا المجتمع الجاهلى « يعبدون الأصنام ، ويأكلون الميتة ، ويأتون الفواحش ، ويقطعون الأرحام ، ويسيئون الجوار ، ويأكل القوى منهم الضعيف »(١) فرأى هذا العدو ، الذى يعيش فى نفوسهم وفى عقائدهم وأخلاقهم، اضر وأفتك من كل عدو من الخارج ، وان هذا الخطر — الذى نبع وانبثق من داخلهم ، أعظم من كل خطر عرفوه فى حياتهم الجاهلية الطويلة ، وفى مجتمعهم العربى القبلى ، وأن عداوة نفوسهم أشد وأدق من عداوة كل قبيلة منافسة ، ومن كل جيش محارب ، وأن أسلوب حياتهم يثير سخط الله القادر القاهر الذى لا يرضى لعباده الكفر ولا يحب فى الأرض الفساد .

فخرج صلى الله عليه وسلم وصعد على جبل الصفا — وهو

---

(١) هذا الوصف للمجتمع الجاهلى العربى ، الذى كانت فيه بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مأخوذ من حديث جعفر بن أبى طالب فى مجلس النجاشى ملك الحبشة (انظر سيرة ابن هشام القسم الاول ص ٣٣٦ طبع الحلبى) وفى الاصل كنا قوما أهل جاهلية نعبد الاصنام ... الخ .

أقرب الجبال اليهم — ونادى بأعلى صوته « يا صباحاه » وقد شهد هذا الوادى بأنه كان أصدق صوت فى أصدق مناسبة ، وانه أليق وضع لهذا الانذار البليغ ، والصيحة المفزعة .

وقد سمع أهل مكة الصيحة المعروفة المألوفة ، تخرج من فم أصدق رجل عرفوه فى بلدهم وسموه « الصادق الأمين » وفهموا معناها ومطالبها ، وأمامهم سلسلة طويلة من التجارب والحوادث فلم يتأخروا فى تلبية هذا النداء « فاجتمع الناس اليه بين رجل يجىء اليه وبين رجل يبعث رسوله(١) » .

« فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا بنى عبد المطلب ! يا بنى فهر ! يا بنى كعب ! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتمونى ؟(٢) » .

كان القوم الذين خاطبهم الرسول العربى صلى الله عليه وسلم ، ووجه اليهم هذا السؤال أميين غير مثقفين ، لم يدرسوا الفلسفة وعلوم المنطق ، ولم يألفوا التعمق والتدقيق ولكنهم — كما قلت — كانوا واقعيين عمليين ، رزقهم الله النصيب الأوفر من سلامة الفهم وسرعة الادراك ، فاستعرضوا الواقع واستعرضوا المحيط الذى وقف فيه هذا الخطيب النذير واستعرضوا وضعه الطبيعى .

رأوا رجلا جربوا عليه الصدق والأمانة والنصيحة وحب الخير ، قد وقف على جبل يرى ما أمامه وهو الذى اشترك فيه مخاطبوه ، وينظر الى ما وراء هذا الجبل والسفح المقابل ، فعرفوا من غير شك وتأمل طويل ، أن له الحق أن يتحدث عما فى السفح المقابل من عدو رابض وخطر كامن ، وليس لهم حق — وقد حال الجبل بينهم وبين السفح المقابل — أن يكذبوه وينفوا رؤيته على أساس انهم لا يشاركونه فى هذه المشاهدة ، فقد فرق الجبل القائم بين

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٣٨ .

(٢) أيضـا .

وضعهم ووضع الخطيب النذير ، وأعطاه من فرصة المشاهدة وحق الشهادة ما لم يعطهم .

وكانوا عقلاء منصفين ، شجعانا صادقين فقالوا : « نعم » !

وقد نجح رسول الله صلى الله عليه وسلم بحكمة النبوة التى خصه الله بها ، وبلاغته العربية التى أكرمه الله بها . وقد صور لهم مركز النبوة والأنبياء الفريد الدقيق ، ووضعهم الشاذ الذى يستطيعون به أن يشاهدوا ما لا يشاهده أقرانهم وأبناء جنسهم وعصرهم ، ويشهدوا بما لا يشهد به المصلحون والزعماء عادة ، فقد وقفوا على قمة جبل من النبوة يطلون منها على الجانبين ، الجانب الحسى بحكم النبوة التى يكرمهم الله بها ، والاتصال بعالم الغيب تحت الارادة الآلهية « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى »(١) .

وليس لأذكى انسان ، وأعظم عالم ، وأكبر عاقل أن يكذبهم وينفى مشاهدتهم على أساس أنه لا يشاركهم فى هذه المشاهدة ، ولا يرى ما يرونه ، كما لا يجوز لمن وقف فى سفح الجبل أن يكذب من قام على قمته وأخبر بما وراء الجبل وتحدث عما وراء الأكمة .

فاذا حاجهم وخاصمهم أسير لحسه قالوا محتجين مستغربين « أتحاجونى فى الله وقد هدان(٢) » وكان العرب الأميون أعقل — فى هذه المرحلة البدائية — من الفلاسفة والحكماء الذين كذبوا أخبار الرسل وشكوا فى الحقائق التى جاؤوا بها على أساس عدم مشاهدتهم واطلاعهم « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله(٣) » .

ولما تمت هذه المرحلة الطبعية آلعقلية التى كان لا بد منها ،

(١) الكهف ١١٠ .

(٢) الانعام ٨٠ .

(٣) يونس ٣٩ .

تقدم الرسول صلى الله عليه وسلم خطوة ثابتة ودخل فى المرحلة الثانية ، المرحلة النهائية .

فقال : « فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد » أنذرهم بالخطر الحقيقى الدائم الذى يهددهم والذى هو طبيعة هذه الحياة التى يحيونها ، والعقائد التى يدينون بها والأصنام التى يعكفون عليها ، والعادات الظالمة والأخلاق الجاهلية التى يتمسكون بها ، وبالاختصار هذه الجاهلية الجهلاء التى يعيشون عليها ، لا ايمان ، ولا علم ، ولا عدل ، ولا تقوى .

ان طبيعة هذه الحياة هو الفساد الشامل فى المجتمع ، والمعيشة الضنك ، والقلق النفسى ، والعذاب الداخلى فى هذه الحياة « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون(١) » « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون(٢) » .

والعذاب الدائم بعد هذه الحياة الذى يهون ويصغر أمامه كل عذاب وألم « ولعذاب الآخرة أشق(٣) » « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »(٤) « ولعذاب الآخرة أخزى(٥) » .

لقد اطلع العلماء والفاحصون على خواص الأدوية ، وعرفوا كثيرا من طبائع الأشياء والقوى المودعة فى الموجودات ، وكونوا العلوم والمعلومات التى انتفع بها الناس وشكروا أصحابها واعترفوا بفضلهم ، وتفرد الأنبياء بمعرفة ذات الله وصفاته وأحكامه ومرضاته ، وبخواص العقائد والأعمال والأخلاق ، صحيحها وسقيمها وصالحها وفاسدها وما تجر وتستتبع من سعادة وشقاء فى الدنيا ، وثواب وعقاب ، وجنة ونار فى الآخرة ، وخصهم

---

(١) الروم ٤١ .
(٢) السجدة ٢١ .
(٣) الرعد ٣٤ .
(٤) طـه ١٢٧
(٥) فصلت ١٦ .

الله — بقدر ما يريد — بعلم ما يكون بعد هذه الحياة ، وفى ذلك العالم من حشر ونشر وانعام وعذاب ونعيم وجحيم .

« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الا من ارتضى من رسول(١) » .

لقد وقفوا عليهم السلام على جبل النبوة يشرفون منها — بقدر ما يريد الله — على عالم الغيب والشهادة ويخبرون بما يهجم على هذه البشرية وعلى هذه المدنية فى المستقبل القريب والبعيد ، وما يكمن لها من خطر وضرر ، ثم ينذرون قومهم شفقة واشفاقا وحبا واخلاصا ، فاذا نازع هذا الحق الطبيعى العقلى وهذه البداهة وشك أو شكك فى مركزهم قالوا فى نصيحة واخلاص وتألم واشفاق :

« قل انما أعظكم بواحدة ، أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد (٢) » .

الوسيلة الوحيدة المعرفة الصحيحة والهداية الكاملة :

لذلك يلح القرآن على أن الأنبياء هم الأدلاء على ذات الله وصفاته الحقيقية ، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة التى لا يشوبها جهل ولا ضلال ولا سوء فهم ولا سوء تعبير ، ولا سبيل الى معرفة الله تعالى الصحيحة الا ما كان عن طريقهم ، لا يستقل بها العقل ، ولا يغنى فيها الذكاء ، ولا تكفى سلامة الفطرة ، وحدة الذهن والاغراق فى القياس ، والغنى فى التجارب ، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة ، وهم أهل الصدق وأهل التجربة ، وقد اعلنوا ذلك فى مقام صدق كذلك « الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا

---

(١) الجن ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) سبأ ٤٦ .

لنهتدى لولا أن هدانا الله(١) » وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم « لقد جاءت رسل ربنا بالحق(٢) » فدل على أن الرسل وبعثتهم هى التى تمكنوا بها من معرفة الله تعالى وعلم مرضاته وأحكامه والعمل بها ، الذى تمكنوا به من الدخول فى الجنة والوصول الى دار النعيم .

وقد ختم الله تعالى سورة جليلة من سور القرآن وهى سورة الصافات وقد نفى فيها ضلال المشركين وسوء اعتقادهم ونسبتهم الى الله ما هو منه برىء فقال فى آخر السورة « سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين(٣) » والآيات الثلاث حلقات متصلة بعضها ببعض ، فلما نزه الله نفسه العلية مما يتفوه به المشركون ، ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتقديس الكاملين ، والوصف الصحيح البالغ ، وسلم وأثنى عليهم لأنهم هم أهل الفضل فى تعريف الخلق بالخالق ، وفى الوصف الصحيح الصادق ، وكانت بعثتهم منة على الخلق ، ونعمة على الانسانية ، ومن مقتضيات الربوبية الرحيمة الحكيمة ، فختم كل ذلك بقوله « والحمد لله رب العالمين (٤) » .

ضلال الفلسفة اليونانية وسر شقائها وخيبتها :

اذن قد ضل وتعب وجاهد فى غير جهاد من أراد معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة وصفاته وأسمائه الحسنى ، وما بينه وبين هذا العالم من صلة وكيفية احاطته به ، وقدرته عليه ونفوذ أحكامه فيه عن غير طريق الأنبياء والمرسلين ، واعتمد فى ذلك على عقله وعلمه وذكائه والمامه ببعض العلوم والصنائع ، ونجاحه فى بعض المحاولات العلمية وانتاجه الضعيف المتواضع أو العظيم الضخم فى بعض مجالات علمية ، وحق عليهم قوله تعالى « ها أنتم هؤلاء

(١) الاعراف ٤٣ .
(٢) أيضا ٤٣ .
(٣) الصافات ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ .
(٤) أيضا

حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون(١) » .

وهذا سر ضلال الفلسفة الاغريقية الالهية وأقطابها ونوابغها ، فقد غرهم ذكاؤهم وعلومهم وآدابهم وشعرهم الخصب الغنى ، وملاحمهم العظيمة التى نظموها ، ونبوغهم فى علوم الرياضة والهندسة ، والاقليدس والفلسفة الطبيعية ، والنجوم والفلكيات فخاضوا فى الالهيات وفى موضوع الذات والصفات والخلق ، والابداع ، فجاءوا بالسخيف المرذول وبالمتهافت المتساقط وبالمتناقض المتضاد من الآراء والأقوال والتحكمات والتخمينات التى صدق حجة الاسلام الغزالى رحمه الله فى وصفها بقوله .

« ظلمات فوق ظلمات ، لو حكاه الانسان عن منام رآه لاستدل على سوء مزاجه ، أو لو أورد جنسه فى الفقهيات التى قصارى المطلب فيها تخمينات لقيل انها ترهات ، لا تفيد غلبات الظنون(٢) » .

وقال فى موضع آخر « لست أدرى كيف يقنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع ، فضلا عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم فى المعقولات ؟(٣) » .

وكذلك قال شيخ الاسلام ابن تيميه رحمة الله عليه :

فيقول معلقا على كلام الفلاسفة والحكماء : « ليتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل ، كيف يتكلمون فى غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ويجعلون الحق المعلوم بالضرورة مردودا ، والباطل الذى يعلم بطلانه بالضرورة مقبولا ، بكلام فيه تلبيس وتدليس(٤) » .

(١) آل عمران ٦٦ .
(٢) تهافت الفلاسفة ص ١٥ .
(٣) أيضا ص ١٢٤ .
(٤) منهاج السنة ج ٣ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول فى الحاشية ص ٢٧٢ .

وحق عليهم قوله تعالى « أشهدوا خلقهم ؟ ! ستكتب شهادتهم ويسئلون(١) » وقوله « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا(٢) » .

عثرة الفلسفة التى بدأت فى العصر الاسلامى :

وقد تأثرت فلسفتنا الاسلامية — مع الأسف — التى نشأت لمحاربة الفلسفة اليونانية الملحــدة بنفس نزعتها ، وهى البحث التفصيلى فى قضايا ليس عند الانسان مبادئها ومقدماتها ، وتسربت اليها هذه الروح الفلسفية العاتية التى تتعدى حدودها ولا تعرف قدرها ، فجاءت بالتدقيق والتقشــير فى مسائل الذات وتأويل الأسماء والصفات وتناولوه بالتشريح والتجزئة والتحليل ، كأنهم فى معمل كيماوى ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

انفراد الأنبياء واختصاصهم بالعلم النافع المنجى :

تكفل الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وانفردوا بالعلم النافع وبالعلم الذى لا سعادة للانسان ولا نجاة له بغيره ، وهو العلم الذى يعرف به الانسان خالقه وفاطر هذا الكون ، ومدبر هــذا العالم ، وصفاته العالية ، والصلة التى بينه وبين عبده ، وموقف الانسان فى هذا العالم وموقفه من ربــه ، ومبداه ومصيره وما يرضيه تبارك وتعالى وما يسخطه ، وما يشقى الانسان فى الدار الآخرة وما يسعده ، وخواص عقائده وأعماله وأخلاقه ، وجزاءها وما يترتب على ما يصدر من قول واعتقاد وعمل من الثــواب والعقاب والنتائج البعيدة الطويلة المدى ، وهذا هو العلم الذى يستحق أن يسمى « علم النجــاة » والأنبياء مع سمو مداركهم ، وصــفاء حسهم وكونهم على الجــانب الأعلى من الذكاء والنبوغ الفطريين لا يتدخلون فى العلوم السائدة فى عصرهم ولا يزعمون لهم فيها كعبا عاليا ولا يدا طولى .

---

(١) الزخرف ١٩ .

(٢) الكهف ٥١ .

انما ينقطعون ويتخصصون لما بعثوا له وأمروا به. وتوقفت عليه سعادة البشرية ويكلون هذه العلوم الى أصحابها .

مصير الأمم المتمدنة الراقية التى استغنت عن علم الأنبياء :

وقد كانت الأمم المتمدنة الراقية التى بلغت أوج المدنية والذكاء والانتاج العلمى فى عصرها ، فى حاجة الى هذا العلم الذى يحمله الأنبياء وينفردون به بين الخلق ، حاجة الغريق الى قارب النجاة وحاجة المريض المشرف على الهلاك الى الدواء الأكسير ، وكان أفرادها بالنسبة الى هذا العلم — مهما علا كعبهم فى العلم والمدنية — جهالا أميين وفقراء مفلسين ، وأطفالا صــغار . وكانت على خطر — رغم كل فتوحها العلمية وازدهار المدنية — اذا جهلتــه أو رفضته ، وقد وقعت أمم متمدنة راقيــة غنيــة فى العلوم والآداب التى يضرب بها المثل فى الذكاء والعبقرية فريسة الانكار والاستكبار والاعجــاب بنفسها والادلال بعلومهــا وصــنائعها ، ونظرت الى ما جــاء به نبى عصرهم بعين الازدراء والاحتقار ، وزهــدت فيــه واستصغرته ، فذهبت ضحية هــذا الغرور وهذه السفاهة المصورة بالذكاء وقصــور النظر ، الملقب حينئذ ببعد النظر والنقد العلمى ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا .

مثل العلم الذى يجىء به الأنبياء مع علوم البشر وصناعاتهم :

ان الفرق الواضح الذى بين علم الأنبياء وبين علوم العلمــاء والحكماء أيهــا الاخوان ، انما يتجلى بوضــوح فى قصة لعلكم سمعتموها ولكن لعلكم لم تطبقوها على هذا الفرق ولم تستخرجوا منها هذه الحكمة الرائعة ، وكم ضاعت أمثال حكيمة وقصص ذات مغزى عميق ، واليكم معذرتى فان القصة تتصل بطائفتكم معشر التلاميذ والطلبة .

يحكى أن فريقا من تلاميــذ المدارس ركبوا سفينة للنزهة فى البحر أو للوصول الى البر ، وكان فى النفس نشاط وفى الوقت

سعة ، وكان الملاح المجدف الأمى خير موضوع للدعابة والتنادر، وخير وسيلة للتلهى وترويح النفس ، وخاطبه تلميذ ذكى جرىء وقال يا عم ماذا درست من العلوم ؟ قال ولا شىء يا عزيزى ! قال أما درست علوم الطبيعة يا عمى ؟ قال كلا ولا سمعت بها ! وتكلم أحد زملائه ، وقال : ولكنك لا بد درست علم الأقليدس والجبر والمقابلة ! قال وهذا أغرب ، وتصدقون أنى أول مرة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة ، وتكلم ثالث « شاطر » فقال ولكنى متأكد بأنك درست الجغرافية والتاريخ ؟ فقال وهل هما اسمان لبلدين أو علمان لشخصين ؟ وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة وعلا صوتهم بالقهقهة ، وقالوا ما سنك يا عم ؟ قال أنا فى الأربعين من سنى ! قالوا لقد ضيعت نصف عمرك يا عمنا ، وسكت الملاح الأمى على غصص ومضض وبقى ينتظر دوره ، والزمان دوار .

وهاج البحر وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب والأمواج فاغرة أفواهها لتبتلعها ، واضطرب الشباب فى السفينة وكانت أول تجربتهم فى البحر وأشرفت السفينة على الغرق وجاء دور الملاح الأمى فقال فى هدوء ووقار ، ما هى العلوم التى درستموها يا شباب ؟ وبدأ الشباب يتلون قائمة طويلة للعلوم والآداب التى درسوها فى الكلية ويتوسعون فيها فى الجامعة من غير أن يفطنوا لغرض الملاح الجاهل الحكيم ، ولما انتهوا من عد العلوم المرعبة أسماؤها ، قال فى وقار تمزجه نشوة الانتصار ، لقد درستم يا أبنائى هذه العلوم الكثيرة فهل درستم علم السباحة ؟ وهل تعرفون اذا انقلبت هذه السفينة — لا قدر الله — كيف تسبحون وتصلون الى الساحل بسلام ؟ قالوا لا والله يا عم ، هو العلم الوحيد الذى فاتتنا دراسته والالمام به ، هنالك ضحك الملاح وقال اذا كنت قد ضيعت نصف عمرى فقد أتلفتم عمركم كله ، لأن هذه العلوم لا تغنى عنكم فى هذا الطوفان ، انما كان ينجدكم العلم الوحيد ، هو علم السباحة الذى تجهلونه .

هذه قصة الأمم المتمدنة الراقية التى كانت دائرة معارف أو موسوعة فى العلوم والآداب ، وكانت زعيمة العالم كله فى كل

ما أنتجه البشر وتوصلوا اليه فى العلوم والحكمة ، واكتشفوا به هذا الكون الواسع والذخائر المودعة فيه ، ولكنها جهلت العلم الوحيد الذى يوصل الى الخالق ويعرف به ، والذى تنال به النجاة وهو بر السلام والساحل المقصود ، هو الذى يضبط الأعمال والرغبات، ويقهر النزوات والشهوات ، ويصلح الأخلاق ويهذب النفوس ويردع عن الشر ويدفع الى الخير ، ويلهم خشية الله التى لا صلاح للمجتمع ولا قوام للمدنية بغيرها ، ويحمل الانسان على التهيؤ للمصير والاستعداد للآخرة ، ويخفف من غلواء الأنانية وحب الذات ، والتكالب على حطام الدنيا ، ويلهم الاقتصاد والسداد ، ويمنعه من الجهاد فى غير جهاد .

وقد حكى الله قصة هذه الأمم التى غلب عليها الزهو والتيه واستصغرت شأن الأنبياء المبعوثين فى عصرها ، الذين لم يشتهروا بامتياز فى علم من العلوم السائدة فقال « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون(١) » .

لا استغناء ولا استكبار بعد بعثة الرسول :

وهذه قصة كل أمة بلغت شأوا بعيدا فى العلم والمدنية والصناعة والحكمة بعد بعثة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم ، وقد منعها استكبارها وزهوها واعتمادها الزائد على علومها وحضارتها وعلى أساتذتها النوابغ وعباقرتها الكبار من الافادة من العلم الغزير الذى جاء به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والتمسك بأهدابه والسير فى ركابه ، وقصة كل أمة معاصرة تمكنها الافادة من هذا الدين الخالد ومن هذا النور الوضاء ، وستلقى هذه الأمم كلها جزاء هذا الاستكبار ونتيجة هذا الانكار أو الاستغناء فى تعفن حضارتها ، وانهيار مدنيتها .

(١) غافر ٨٣ .

الأقطار الاسلامية والعربية فى خطر عظيم :

وشأن الأقطار الاسلامية والعربية فى الاعراض عن هذه التعليمات وهذا العلم الغزير الموجود والزهد فى الاستفادة منه والتهالك على الحضارة الغربية والقيم المادية والأوضاع الجاهلية والفلسفات القومية أو الاشتراكية أغرب ، وهى على خطر عظيم لا يدفعه شىء ، ولا تزال معاقبة بالفرقة والاختلاف والفوضى والثورات والتحاسد والتباغض وعدم التعاون والاتحاد وذهاب الريح والشوكة والهوان على العدو .

طوائف العلماء والباحثين فى مدينة جديدة :

ومثل الأنبياء ومثل الطوائف الأخرى من أهل العلم والحكمة والبحث والتحقيق كمثل مدينة عامرة ، زاهية منظمة ، يدخل فيها طوائف مختلفة ذات الاختصاصات والاتجاهات المختلفة ، فيدخل فيها طائفة موضوعها التاريخ فتبحث فى تاريخ هذه المدينة القديمة ، من اختطها ؟ ومتى قامت وعمرت وما مر بها من أحداث وما تعاقب عليها من حكومات ؟

وطائفة من علماء الآثار فتدرس الألواح والحفائر والكتابات المستخرجة من الأنقاض وعملية الحفر ، وتعين عصورها وتهدى الى الحضارات العتيقة المندثرة والمدارس الدارسة والعادات القديمة .

وطائفة صناعتها الجغرافية ، فهى تدرس حدود هذه المدينة الى أين تنتهى وموقعها الجغرافى ، والجبال المحيطة بها ، المطلة عليها ، والأنهار التى تخترقها ومن أين تنبع .

وطائفة هوايتها الأدب والشعر فيستهويها جمال الطبيعة الساحر والمناظر الجميلة الفاتنة ، والنسيم العليل البليل الذى يهب فيها صباحا،والأزهار والرياحين التى تملأحدائقها فتهيج فيها الشاعرية،

وتفيض قريحتها بالشعر الرقيق الرائق ، والمعانى اللطيفة ، والأخيلة البديعة .

وطائفة من علماء الألسن والفلسفة اللغوية والقواعد تتأمل فى اللغة التى يتكلم بها أهل المدينة فيبحثون فى نشوئها وارتقائها وتطورها وصلتها باللغات الأخرى ، ويبحثون عن الحلقات المفقودة ويضعون معاجم ، ويؤلفون كتبا فى قواعد اللغة ويضبطون كتابتها.

هذه كلها طوائف من أهل العلم لا يستهان بقيمتها ولا ينتقص من شأنها ، ولكل وجهة هو موليها ، ولكنها كلها على خطر لو لم تعرف من الذى يحكم هذه المدينة وما نظام الحكم ، وما هى القوانين السائدة التى يجب عليها كلها — على اختلاف نزعاتها — الرضوخ لها ، وما هى جباية الرعوية أو التجنس بجنسية هذا البلد أو المملكة ، وما هى الضرائب المفروضة على أهل هذه المدينة ، وما هى قواعد المرور وقوانين الاقامة فى هذا البلد ، الى غير ذلك مما يتصل بالحياة الشريفة الشرعية فى هذا البلد المنظم .

مهمة الأنبياء فى هذه المدينة :

وتدخل طائفة كاملة المواهب صحيحة القوى ، لطيفة الحس ، رقيقة الذوق ، لا تفقد شيئا مما يتجمل به البشر ، ولكن همها غير هم هذه الطوائف كلها ، ودعوتها ومنهاجها غير دعوة هذه الطوائف ومنهاجها ، هى تهتدى — وبالأصح يهديها قيم هذا البلد ويأخذ بيدها — الى مركز هذه المدينة والمدنية والى مصدر الحياة والقوة والتنظيم فى هذه المملكة المنظمة تتصل به رأسا وتتلقى أحكامه واشاراته ، وتبلغها الى جميع الطوائف وتتوسط بين ادارة هذه المدينة وبين سكانها فى التبليغ والدعوة ، ولاشك أن جميع الطوائف مدينة لهذه الطائفة فى حياتها واشتغالها بعلومها ومباحثها فى هدوء وسلام ، وان هذه العلوم كلها تنشأ وتزدهر فى كنف هذه المعرفة التى تحماها وتنشرها تلك الطائفة المقدسة وتعيش فى حمايتها وظلها ، فلولا هذه المعرفة ، ولولا هذه الطائفة لوقعت الطوائف الأولى كلها فريسة الجهل ونقض القانون ، والقى القبض

عليها وزجت فى السجون ، وتحولت علومها وجهودهـا وانتاجها الى الأوهام والظنون ، أو على الأقل الى العبث والمجـون ، فان أساس جميع العلوم والاكتشافات والنظام الذى يربط هذه الوحدات هو معرفة المدبر والمنظم لهذه المدينة الواسعة والقطب الذى تدور حوله رحى الحياة فى هذا البلد ، وهى المعرفة التى اختص بهـا الأنبياء واختصت بهم « وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السـموات والأرض وليكون من الموقنين(١) » .

أهم الواجبات وأقدس المهمات :

وترون الخطب أعظم اذا عـرفتم أن الأمر ليس أمر الحـاكم والمنظم فقط ، ان الحاكم والمنظم لهذا البلد — فى المثـال الذى ضربناه — هو خالق هذا البلد الذى أخرجه من العدم الى الوجود ، وأفاض عليه الحياة ورزقه كل ما يحتـاج اليه ويصـلحه وهو الرازق ، وهو الجواد ، وهو الغفور الودود « هو الله الذى لااله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لااله الا هو ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له مافى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم(٢) » .

اذن كانت معرفته بكل العقل ومحبتـه بكل القلب وطاعتـه بكل الجوارح واجهاد النفس وبذل الوسع فى ارضائه ، والتقرب والتودد اليه أهم الواجبات ، وأقدس المهمات ومقتضى الانسانية والمروءة ، ومطالبة العقل السليم والفطرة المستقيمة .

وهذا مركز النبوة والأنبياء ووضع رسالتهم ومهمتهم بين مراكز الطوائف البشرية ورسالاتها ومهماتهـا ، فهم كالروح بالنسـبة

---

(١) الانعـام ٧٦ .
(٢) الحشر ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ .

الى الجسد وكالعقل بالنسبة الى العمل ، وكالعين بالنسبة الى الانسان ، والدنيا بغيرهم — بعلومها وآدابها ومدنياتها وصنائعها — ظلام فى ظلام ، « ظلمـات بعضـها فوق بعض اذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فمـا له من نـور (١) » .

العامل الأساسى الأكبر فى صلاح البشرية وارتقاء المدنية :

وليس الأنبياء — صلوات الله عليهم وسلامه — مصدر المعرفة الصحيحة وعلم اليقين فحسب ، بل هم الذين يمنحون الأجيـال البشرية ثروة أخرى كذلك ، يرجع اليها الفضل فى صلاح البشرية كلها وفى ازدهار المدنية كلها ، وهى قوة كراهة الشر وحب الخير ، والتمرد على قوى الشر ونوازعه والاندفاع الى الخير والجهاد فى سبيله ، هذه القوة التى كانت العامل الأساسى الأكبر فى كل ما قام به البشر من مآثر وبطولات،ولم تزل الرسائل والمواد والمؤسسات خاضعة دائما للارادة الانسانية والعزم القوى ، ان الشـأن كل الشأن فى أن يريد الانسـان ، وأن الخير كل الخـير فى أن يريد الانسـان الخير ، وكان منبع هذا الخير دائمـا تلقين الأنبيـاء وتعليمهم ، هم الذين كانوا — فى كل عصر من عصور بعثتهم — يبعثون فى أمتهم وفى جيلهم طبيعة حب الخير وكراهـة الشر ، والانتصار للحق ومحاربة الباطل والفساد ، وكانت كلما ضعفت هذه الطبيعة وتحولت الطبيعة الانسانية طبيعة بهيمية أو سبعية — كما شاهدنا فى الأمم التى قص الله علينا قصتها فى القرآن — عالجوها وحولوها الى طبيعة انسانية كريمة رقيقة ، ووجد — بتعليمهم الفاضـل وجهادهم المتواصـل ونسيانهم أنفسهم ولذاتهم ومجازفتهم بأرواحهم ومهجهم وشرفهم — فى هذه الأنعام السـائمة والسباع الضارية .

---

(١) النـور ٤٠ .

المحاضرة الثانية

سمات النبوة وخصائص الأنبياء

اخوانى ! تحدثت اليكم فى المحاضرة السابقة عن النبوة : حاجة الانسانية اليها وفضلها على المدنية ومهمتها ورسالتها فى العالم ، واحب أن أتحدث اليكم فى هذه الفرصة السعيدة عن طبيعة النبوة ومزاجها الخاص ، وعن خصائص الأنبياء وعما يمتازون به عن قادة الفكر وزعماء الاصلاح من طوائف البشر .

جناية الأساليب الصناعية والمصطلحات السياسية على فهم النبوة والأنبياء

لقد طغت الأساليب الصناعية والمناهج السياسية وطرق القيادة والتنظيم الحديثة ، ومناحى التربية والتعليم التى قامت ولا تزال بدورها فى تعليم الأميين ، ورفع مستوى الحياة ، ومحاربة الفساد ، وتحرير البلاد ، وكل يذكر ويشكر ، ولكنها استولت على العقول والنفوس وانطبعت نفسية أصحابها وسيرتهم ومنابع قوتهم وعزائمهم ، ودوافع أعمالهم وجهادهم وأساليب تفكيرهم ومقاييس نجاحهم فى نفوس الناس ، حتى أصبحوا لا يتصورون

النبوة والأنبياء الا من هذه الزاوية ، ولا ينظرون اليهم الا بهذا المنظار ، وقد بدأ بعض الكتاب الاسلاميين فى العصر الأخير يخضعون فى قليل أو كثير لهذه المفاهيم والظلال ، ويفسرون دعوة الأنبياء والرسل وأعمالهم بمصطلحات سياسية واجتماعية حديثة ، مما يحول بين أهل العصر وبين فهم منصب النبوة على حقيقة أو طبيعة الأنبياء وطبيعة رسالتهم التى يكلفون بها ، ومناهج عملهم ، ويمنع من الاقتداء بهم والتشبع بروحهم ، ويتجه بالفكر على درب أقل ما يقال فيه أنه غير درب النبوة وشاكلتها .

الحاجة الى دراسة القرآن المجردة عن التأثيرات الخارجية :

لذلك اشتدت الحاجة الى دراسة القرآن فى هذا الموضوع دراسة عميقة حرة ، مجردة عن التأثيرات الخارجية والثقافات الأجنبية ، مجردة كذلك عن ما قد تهواه قلوبنا وتطمح اليه نفوسنا ، وقد يكون مما يستحسن ولا يستهجن وقد يكون شيئا طبيعيا ، ولكن لا يجوز أن يخضع القرآن وتخضع سيرة الأنبياء السابقين لكل ما يستحسن ، مجردة عن كل تقليد وعن كل تطبيق ، فالعصور تتبدل ، ومناهج الفكر تتبدل ، وقيم الأشياء ودرجاتها تتغير وتتبدل ، وترتفع وتنخفض ، وما حدث فى عصر من نظرية أو مصطلح لا يجوز أن يسلط على عصر سابق أو جيل سابق ، فضلا عن القرآن الذى هو كتاب سماوى خالد ، فانه لا يخضع لعصر ولا يخضع لفكر ، ولا يخضع لفلسفة فكرية أو سياسية ، وعلوم الانسان ونظرياته كثيب مهيل من رمل يتناثر وينبسط ، وينضوى ويمتد ، لا يصلح عليه البناء ولا يجوز أن ينزل عليه القرآن من منزلته العالية السماوية ومن أساسه المحكم الأبدى .

الفارق الأساسى بين الأنبياء والمرسلين ، والحكماء والمصلحين :

ان أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء ان العلم الذى ينشرونه بين الناس والعقيدة التى يدعون اليها والدعوة التى يقومون بها

لا تنبع من ذكائهم أو حميتهم أو تألمهم بالوضع المزرى الذى يعيشون فيه ، أو من شعورهم الدقيق الحساس ، وقلبهم الرقيق الفياض ، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة ، لا شىء من ذلك ، انما مصدره الوحى والرسالة التى يصطفون لها ويكرمون بها ، فلا يقاسون أبدا على الحكماء أو الزعماء أو المصلحين ، وجميع أصناف القادة الذين جربتهم البشرية وتاريخ الاصلاح والكفاح الطويل ، والذين هم نتيجة بيئتهم ، وغرس حكمتهم ، وصدى محيطهم ، ورد فعل لما كان يجيش به مجتمعهم من فساد وفوضى ، والقول الفصل فى ذلك قول القرآن على لسان سيد الرسل صلى الله عليه وسلم « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون(١) » وقول الله تعالى : « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم(٢) » . وقال « وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك ، فلا تكونن ظهيرا للكافرين(٣) » وقوله بعدما ذكر من بعد الرسول عن البيئة التى حدثت فيها هذه الحوادث والوقائع التى يحكيها لقومه « وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك ، لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون(٤) » ويقول القرآن عن طبيعة الرسالة التى يختار لها الرسل وعن مبدئها ومصدرها « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا فاتقون(٥) » .

لذلك لا يخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية أو حوادث وقتية خارجية ، ولا يدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع وشاء المجتمع ، وقد قال الله تعالى عن رسوله الكريم « وما ينطق عن الهوى ، ان هو الا وحى يوحى(٦) » ولا يستطيع أن

(١) يونس ١٦ .
(٢) الشورى ٥٢ .
(٣) القصص ٨٦ .
(٤) القصص ٤٦ .
(٥) النحل ٢ .
(٦) النجم ٣ — ٤ .

يحدث تغييرا أو تبديلا أو تحويرا أو تعديلا فى رسالته وأحكام الله ، وقد قال لرسوله « قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان اتبع الا ما يوحى الى ، انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم(١) . » ونفى الله عند المداهنة وعصمه عنها فقال « ودوا لو تدهن فيدهنون(٢) » وقد أنذره بالعقاب الأليم المخزى ، اذا تجنى على الله أو قال ما لم يقله أو زاد أو نقص شيئا من وحيه وكلامه ، فقال « تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين(٣) » . وقد أمره بتبليغ الرسالة بنصها وفصها ، وبرمتها وجملتها ، فقال « يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس أن الله لا يهدى القوم الكافرين(٤) » .

وهذه هى السمة الفاصلة الأساسية المميزة بين الأنبياء صلوات الله عليهم وبين القادة والزعماء والذين تكون رسالتهم وكفاحهم وحى بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم واستجابة القلق الذى يساور المجتمع ، ويساير النفوس الواعية ، والذين يلاحظون دائما البيئة والمجتمع والظروف والأحوال ، ويراعون المصلحة والسياسة ، ويخضعون لها فى كثير من الأحوال فيتنازلون عن أشياء كثيرة ، وقد يتساومون الأحزاب ويتبادلون معها المنافع ، ومبدأ كثير منهم الذى يأخذون به « در مع الدهر كيف هو دائر » .

الحكمة والتيسير فى دعوة الأنبياء وفى التشريع :

وليس معنى ذلك أن الأنبياء لا يراعون الحكمة والمصلحة مطلقا ، ولا يراعون طبائع الناس واستعدادهم ولا يتحرون لدعوتهم المكان الصالح والزمان الصالح ونشاط النفوس واقبال القلوب ، ولا يراعون التدريج والتيسير ، كلا ! ان كل ذلك مما

(١) يونس ١٥ .
(٢) القلم ٩ .
(٣) الحاقة ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .
(٤) المائدة ٦٧ .

تقتضيه طبيعة الدين السمحة وحكمة الله البليغة وفطرة الأنبياء الحكيمة ، ونطقت به الآثار وشهدت به الحوادث وزخر به تاريخ التشريع وسيرة الرسول ، وقد قال القرآن « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا(١) » ، وقال « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا(٢) » ، وقد قال « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر(٣) » ، وقال « وما جعل عليكم فى الدين من حرج(٤) » ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه بالتيسير والتبشير ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ وأبى موسى لما بعثهما الى اليمن « يسرا ولا تعسرا ، بشرا ولا تنفرا(٥) » ، وقال لأصحابه « انما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين(٦) » ، وقد كان يرجىء تطبيق شىء به مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هى أعظم وأهم منها ، فقال لعائشة رضى الله عنها : « لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس ابراهيم عليه السلام(٧) » وقال ابن مسعود رضى الله عنه « كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة فى الأيام كراهة السآمة علينا(٨) » وعن جابر بن عبد الله « كان معاذ بن جبل يصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم ثم يرجع فيؤم قومه فصلى العشاء فقرأ البقرة فانصرف الرجل فكان معاذ ينال منه ، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فقال : فتان فتان ثلاث مرار(٩) و « عن ابن مسعود قال قال رجل يا رسول الله انى لأتأخر عن الصلاة فى الفجر مما يطيل بنا فلان فيها ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأيته غضب فى موعظة كان أشد غضبا منه يومئذ . ثم قال : « يا

(١) الاسراء ١٠٦ .
(٢) الفرقان ٣٢ .
(٣) البقرة ١٨٥ .
(٤) الحج ٧٨ .
(٥) صحيح البخارى ج ٢ ص ٦٢٢ .
(٦) صحيح البخارى ج ١ ص ٣٥ .
(٧) صحيح البخارى ج ١ ص ٢١٥ .
(٨) صحيح البخارى .
(٩) صحيح البخارى .

أيها الناس ان منكم منفرين فمن أم منكم الناس فليتجوز ، فان خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة(١) » والنصوص فى ذلك والشواهد أكثر من أن تحصى(٢) ، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته صلى الله عليه وسلم مفروض فى سيرة الأنبياء السابقين للحكمة التى وصفهم الله بها « وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب(٣) » « أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة(٤) ».

ولكن كل هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر الى استعداد النفوس انما هو فى التعليم والتربية وفى المسائل الجزئية ومما ليس من العقائد ومبادىء الدين فى شىء ، اما ما كان من العقائد والمبادىء والفرائض والنصوص وما يفرق بين الايمان والكفر والتوحيد والشرك ، وكان من شعائر الاسلام وحدود الله فالأنبياء عليهم السلام ، على اختلاف عصورهم ، أصلب فيه من الحديد وأثبت عليه من الجبال ، لا يعرفون تنازلا ، ولا يعرفون هوادة ، ولا يرضون مساومة .

اخلاص الدين لله وافراد العبادة له :

والسمة الثانية هى أن الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم فى كل زمان وفى كل بيئة هو تصحيح العقيدة فى الله تعالى وتصحيح الصلة بين العبد وربه ، والدعوة الى اخلاص الدين وافراد العبادة لله وحده ، وانه النافع الضار المستحق للعبادة والدعاء والالتجاء والنسك وحده ، وكانت حملتهم مركزة موجهة الى الوثنية القائمة فى عصورهم ، الممثلة بصورة واضحة فى عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات ، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية « ان الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله وجعلهم متصرفين فى بعض الأمور الخاصة ويقبل شفاعتهم فيهم بالاطلاق بمنزلة ملك الملوك يبعث

(١) صحيح البخارى .
(٢) اقرأ الفصل النفيس « باب التيسير » فى حجة الله البالغة لشيخ الاسلام ولى الله بن عبد الرحيم الدهلوى ج ١ .
(٣) ص ٢٠ .
(٤) الانعام ٨٩ .

على كل قطر ملكا ويقلده تدبير تلك المملكة فى ما عدا الأمور العظام(١) » .

وكل من له صلة بالقرآن ، وهو الكتاب المهيمن على الكتب السالفة ، يعرف اضطرارا وبداهة ان القضاء على هذه الوثنية والانكار عليها ومحاربتها وانقاذ الناس من براثنها كان هدف النبوة الأساسى ، ومقصد بعثة الأنبياء وأساس دعوتهم ، ومنتهى أعمالهم وغاية جهادهم وقطب الرحى فى حياتهم ودعوتهم ، حولها يدندنون ومنها يصدرون واليها يرجعون ، ومنها يبدءون واليها ينتهون ، والقرآن تارة يقول بالاجمال « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه أنه لااله الا أنا فاعبدون(٢) » وتارة يقول بالتفصيل فيسمى نبيا نبيا ويذكر أن افتتاح دعوته كان بهذه الدعوة الى التوحيد فقال « لقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم(٣) » « والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ان أنتم الا مفترون(٤) » « والى ثمود أخاهم صالحا . قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربى قريب مجيب(٥) » « والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط(٦) » .

أما ابراهيم فدعوته الى توحيد الألوهية ونبذ الأصنام والأوثان أوضح وأصرح ، ففى سورة الأنبياء « ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . اذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد

(١) التعبير منقول من حجة الله البالغة للامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى .
(٢) الانبياء ٢٥ .
(٣) هود ٢٥ ، ٢٦ .
(٤) هود ٥٠ .
(٥) هود ٦١ .
(٦) هود ٨٤ .

كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين(١) » وفى سورة الشعراء « واتل عليهم نبأ ابراهيم . اذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم اذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فانهم عدو لى الا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . واذا مرضت فهو يشفين . والذين يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين(٢) » وفى سورة مريم « واذكر فى الكتاب ابراهيم ، انه كان صديقا نبيا اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا(٣) » وفى سورة العنكبوت « وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا ، ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا ، فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون »(٤) وفيها « وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين »(٥) .

وكذلك يوسف فقد جاء فى القرآن فى موعظته البليغة الحكيمة فى السجن « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون. واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون

(١) الانبياء ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ .
(٢) الشعراء ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ .
(٣) مريم ٤١ ، ٤٢ .
(٤) العنكبوت ١٦ ، ١٧ .
(٥) العنكبوت ٢٥ .

من دونه الا أسماء(١) سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله أمر أن لا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »(٢) وقد كانت هذه دعوة موسى لفرعون الذى كان يدعى أنه مظهر للشمس « الاله الأكبر » عند قدماء المصريين ، فيقول : « **أنا ربكم الأعلى** » وقد قال حين سمع دعوة موسى : « يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى » . الآية(٣) وقال : « لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين » (٤) .

وقد سمى القرآن عبادة الأوثان الشرك الأكبر والرجس وقول الزور وشنع عليه التشنيع الأعظم فقال فى سورة الحج « ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، وأحلت لكم الأنعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ، حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق »(٥) .

الجاهلية الخالدة العالمية وجنايتها على البشر :

ان هذه الوثنية والشرك بمعنى التأله لغير الله وغاية التذلل له ، والسجود والدعاء والاستعانة والنذر والذبح له ، هى الجاهلية العالمية التى هى أقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسقطته ، وهى باقية مع البشر فى جميع مراحل حياتهم وتطوراتها ،

(١) كلمة الاسماء تدل على أن معبوداتهم كانت أشخاصا مقدسة موهومة اما لا وجود لها أصلا كما يوجد فى نظام الشرك وعقائد المشركين كثيرا ، واما كان لها أصل ووجود ولكن ليس لها من الالوهية والربوبية نصيب ، وكذلك قال هود لقومه ، « أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان » وذكر الاسماء دليل صريح على أن المعبودات كانت آلهة خيالية أو أصناما بأسماء الماضين .

(٢) يوسف ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) القصص ٣٨ .

(٤) الشعراء ٢ .

(٥) الحج ٣٠ ، ٣١ .

وهى التى تثير غضب الله وغيرته ، وتحول بين العبد وتقدمه الروحى والخلقى والمدنى ، وتهبطه من أعلى الدرجات الى أسفل الدركات « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين(١) » تهبطه من درجة مسجود للملائكة الى درجة ساجد للضعيف من المخلوقات والخسيس من الموجودات ، انها هى الجاهلية التى تخنق القوى وتقتل المواهب وتقضى على الاعتماد على الله والاعتداد بالنفس والثقة بها ، وتصرف الانسان عن الالتجاء الى الله السميع البصير ، العليم القدير ، الجواد الوهاب ، الغفور الودود ، والاستفادة من صفاته التى لا تحد وخزائنه التى لا تنفد الى الالتجاء الى الضعيف الفقير ، العاجز الحقير ، الذى لا يملك شيئا « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيمة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير . يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد »(٢) .

فهم الصحابة والعرب الأولين لكلمات القرآن ومصطلحاته :

هذه الوثنية (فى دائرة ما بعد الطبيعة) بجميع أشكالها الواضحة والدقيقة كانت موضوع جهاد الأنبياء فى كل عصورهم ، وفى جميع بيئاتهم ومجتمعاتهم ، وهو الذى أثار غضب أهل الجاهلية فقالوا : « أجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشىء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم ، ان هذا لشىء يراد . ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة ان هذا الا اختلاق »(٣) ومما لا يشك فيه عاقل درس تاريخ العصر النبوى واطلع على أخبار صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ان الصحابة لم

(١) التين ٤ ، ٥ .

(٢) فاطر ١٣ ، ١٤ ، ١٥ .

(٣) سورة ص ٥ ، ٦ ، ٧ .

يكونوا يفهمون من هذه الآيات التى سردناها الا هـذه الوثنية السافرة وعبادة الأصنام والأوثان ، وتقديس الأشخاص الماضين أو الموجودين والسجود لهم ، والدعاء منهم والذبح والنذر لهم ، والحلف بأسمائهم ، والتقرب الى الله بعبادتهم والاعتماد على شفاعتهم المطلقة التى لا ترد ، وطلب النفع والضر وكشف الكربة منهم ، ولا يفهمون من معنى الاله ، والرب ، والعبادة ، والدين ، الا هذه المفاهيم الدينية ، وهذا هو المستفيض المتواتر من آثارهم وأخبارهم ومناهج كلامهم لا يختلف فيه اثنان .

ما يجب ان يكون الركن الأساسى فى الدعوات الدينية وشعار الدعاة فى جميع العصور :

ولا يزال هذا هو الركن الأساسى فى الدعوات الدينية وحركات الاصلاح الى يوم القيامة ، وهو تراث النبوة الخالد ، « وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون(١) » وشعار جميع الدعاة الى الله وجميع المصلحين المجاهدين .

أما مظاهر الجاهلية الأخرى كالطاعة لغير الله والتحاكم الى غير الله وقبول التشريع غير الالهى ، وتسليم حكومة لا تقوم على النيابة عن الله ، وعلى أحكامه ، فكل ذلك يتبع هذه الوثنية والشرك ويأتى بعده ، ولا يجوز أن يقلل من شأن هذا الشرك الجلى المتقدم ذكره وأهميته وأن يوضع فى الهامش من منهاج دعوة أو جهاد ، أو يساوى بينه وبين معانى الطاعة والحكم السياسية ويحكم عليها حكما واحدا ، أو يعتقد أنه من خصائص الجاهلية القديمة المحدودة المتخلفة التى ولى عصرها وانقضى دورها ، فان هذه اساءة الى دعوة الأنبياء وجهودهم ، وشك فى خلود القرآن وانه هو الكتاب الأخير الدائم ، وشك فى أن منهاج النبوة هو المنهاج الصحيح الذى ارتضاه الله تعالى ، والذى كتب له من النجاح والتوفيق والانتاج والأثمار ما لم يكتب لأى منهاج من مناهج الاصلاح .

(١) الزخرف ٢٨ .

وصية للشباب والدعاة والكتاب :

ايها الشباب الأعزاء ستتخرجون فى هذه الجامعة دعاة مصلحين ، وكتابا مؤلفين وقادة موجهين ، فأريد أن أوصيكم وصية هى عصارة تجارب ودراسات طويلة ، ولا تعرفون قيمتها واهميتها الا بعد التجربة الطويلة ، اياكم أن تعطى كتاباتكم وعرضكم للاسلام وحقائقه ومبادئه فكرة أن المسلمين ظلوا هذه القرون الطويلة فى جهل متصل عن فهم هذا الدين الذى هو دين كل عصر وجيل ، وعن فهم القرآن ومصطلحاته وتعبيراته الأساسية ، لأن ذلك يثبت أن هذا الكتاب بقى هذه المدة الطويلة لا يفهم على حقيقته وأنه بقى مطويا على غرته ، وانقطعت الاستفادة منه بعد نزوله بمدة قصيرة ، وهذا لا شك يناقض قوله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »(١) والوعد بالحفظ فى موضع الامتنان يستوجب الفهم والشرح والعمل والتطبيق ، فلا خير فى كتاب يبقى ، لا يفهم ولا يعمل به ، وقد قال لرسوله « ان علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه »(٢) وهذا الأسلوب من التفكير الذى قد يتجه اليه بعض الكتاب والمفكرين فى هذا العصر يرمى هذه الأمة الخالدة الولود بالعقم والجدب الفكرى الدائم ، والشجرة التى بقيت أفضل مدة حياتها لا تعطى ثمارها ، غير جديرة بالاعتماد والاعتناء ، ولا يرجى منها الخير .

وذلك لا شك نتيجة ما نالته المعانى السياسية والمؤسسات السياسية والتنظيمات فى عصرنا من الأهمية بتأثير النظم الحديثة والثقافات الحديثة ، وكل من يسعى لمجد المسلمين ويطمح الى سؤددهم وصلاح أحوالهم ويريد أن يسود النظام الاسلامى ويقوم الحكم الاسلامى فى جميع أقطار المسلمين قد يقع فى هذا التفريط والإفراط ، ولا شك أنها غايات سامية يجب أن يجند لها المسلمون والدعاة والمفكرون منهم بصفة خاصة مواهبهم وطاقاتهم وأقلامهم ،

(١) الحجر ٩ .
(٢) القيامة ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

ولكن يجب عليهم كذلك أن لا يخضعوا القرآن لهـذه الغاية ، والنصوص الداعية الى هذه الغايات ، الحاثة عليها ، الموجبة لها ، وافرة كثيرة لا يحتاج معها الى هذا التأويل .

عقيدة الآخرة والاهتمام بها فى سيرة الأنبياء ودعوتهم :

والسمة الثالثة من سمات النبوة وملامح دعوتهم وشعائرها هو التشديد على جانب الآخرة واللهج بها والاشادة بذكرها والتنويه بشأنها تنويها يجعلها من النقط الأساسية فى دعوتهم ، ويشعر كل من يعيش فى اخبارهم وأحاديثهم ، ويتذوق كلامهم أن الآخرة دائما نصب أعينهم ، لا تزال ماثلة أمامهم بنعيمها وجحيمها وسعادتها وشقائها فهم الى الجنة فى حنين شديد ومن جهنم فى فزع كبير ، وهو شيء طبيعي قد ملك عليهم مشاعرهم واستولى على فكرهم ، وحسبنا أن نقرأ ما حكاه القرآن من قول ابراهيم وقد جاشت نفسه وفاضت عواطفه حين ذكر الآخرة وتمثل هولها وفزعها : « والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . رب هب لى حكما والحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى انه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . الا من أتى الله بقلب سليم . وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين(١) » .

وكذلك ينظر اليها يوسف العزيز وهو فى أوج أبهته وسيادته ، له الكلمة النافذة والأمر المطاع فى مصر ، أرقى مملكة وأخصب بلاد فى ذلك العصر ، وقد أقر الله عينه من أبيه الكبير وأسرته العزيزة ، وأقر أعينهم بما رأوه من اقبال الدنيا على يوسف ، وقد كان فى ذلك ما يرضى الطموح ويزهى عالى الهمة بعيد النظر ، ولكن فكرة الآخرة وحسن الختام هى التى تسيطر على يوسف وتجعله لا يحسب لهذه العظمة حسابا كبيرا ، فيقول شاكرا داعيا ،

(١) الشعراء ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

راضيا وجلا « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث، فاطر السموات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما والحقنى بالصالحين »(١) .

الحافز الحقيقى الى الدعوة وبذل النصح :

والايمان بالآخرة وتمثل ما فيها ، من سعادة دائمة وشقاء دائم ، وما أعد الله فيها لعباده المؤمنين المطيعين من جزاء ، والكفار العصاة من عقاب ، هو الحافز الحقيقى الى دعوتهم وبذل نصحهم وهو الذى يقلقهم ويطير نومهم ويكدر صفو عيشهم ، ويجعلهم لا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار ، وهو حافز أقوى وأعظم سلطانا على نفوسهم مما يشاهدونه من اختلال النظام واضطراب الأحوال ، وما يشعرون به من الأخطار المحيطة بهذا المجتمع اذا انتشر فيه الفساد ، ويجعلون ذلك موجبا لدعوتهم وانذارهم وسببا لقلقهم واشفاقهم ، فيقول القرآن عن نوح وهو أول رسول يذكره القرآن بتفصيل « ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم »(٢) ويقول عن هود وهو من أقدم الأنبياء وقد بعث فى قوم تهيأت لهم أسباب العيش وتوسعت لهم الدنيا وطابت لهم الحياة « واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون . انى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم »(٣) ويقول عن شعيب وقد بعث فى قوم لان لهم العيش وانتشر فى أرضهم الخصب « انى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط »(٤) .

(١) يوسف ١٠١ .
(٢) هود ٢٥ ، ٢٦
(٣) الشعراء ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ .
(٤) هود ٨٤ ، وفى روح المعانى « فالمراد عذاب يوم القيامة أو عذاب الاستئصال فى الدنيا » .

سيطرة هذه العقيدة على أتباع الرسل :

وقد تعدت هذه الفكرة ، بقوة تأثيرهم ، الى اتباعهم والمؤمنين بهم ، وتجلى لهم قصر مدى هذه الحياة وتفاهتها ، وعظمة الحياة الآخرة وخلودها ، وانها الجد الذى يجاهد فى سبيله المجاهدون ، ويسعى له العاملون ، ويتنافس فيه المتنافسون ، فقال مؤمن آل فرعون « يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار . من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ، يرزقون فيها بغير حساب »(١) وقال سحرة فرعون بعد لحظة من ايمانهم بموسى لما أوعدهم فرعون بالعذاب الأليم وما أدراكم به ؟ تقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، والتصليب فى جذوع النخل « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض ، انما تقضى هذه الحياة الدنيا . انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ، والله خير وأبقى . انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . وذلك جزاء من تزكى(٢) » .

مناط الأمر الثواب والجزاء فى الآخرة :

والأنبياء يبعدون كل البعد عن ان يطمعوا أمتهم فى ملك أو سيادة أو منفعة دنيوية ، ويجعلونه ثمنا لايماتهم أو مكافأة لقبول دعوتهم ، بل بالعكس من ذلك ينكرون على حسب العلو والاستعلاء والاستيلاء على الناس بدافع حب الجاه والطموح الفردى أو القومى ، وقد جاء فى القرآن « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا ، والعاقبة للمتقين » (٣) انما

(١) المؤمن ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) طـه ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .
(٣) القصص ٨٣ .

يطمعونهم فى رحمة الله ويخوفونهم من عذاب الله ، ويجعلون مناط الأمر الثواب والجزاء فى الآخرة ، انما يذكرون أن هذا الايمان والطاعة والاستغفار يجلب رحمة الله ويستدر الرزق ، وينزل الأمطار ويدفع ما هم فيه من جدب وضيق ، فيقول نوح « فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا »(١) ويقول هود « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين »(٢) وهذه طبيعة الايمان والاستغفار وسجيتها التى لا تتخلف عنهما كطبائع الأشياء وخواص الأدوية ونواميس الفطرة .

سيرة الأنبياء وأصحابهم فى الزهد وايثار الآخرة على الدنيا :

ولم تكن دعوة الرسل الى الآخرة وايثارها على الدنيا والاستهانة بقيمة الدنيا ومتاعها دعوة باللسان فقط ، ودعوة لأمتهم فقط ، بل كان ذلك مبدءا ومنهاجا لحياتهم وكانوا من أول المؤمنين بها ، السائرين عليها فى حياتهم وخواصهم وعشيرتهم وقد قال شعيب معبرا عن جماعتهم كلها « ما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه »(٣) فكانوا زاهدين فى الدنيا مقبلين على الآخرة ، فقد زهدوا فى المناصب الكبيرة والمراكز الخطيرة ، وضحوا بها فى سبيل دعوتهم وفوتوا الفرص ، وكان أكثرهم من الذين لهم مستقبل زاهر فى الحياة والغد المضمون ، وكانوا من « اللامعين » فى المجتمع بذكائهم ونبوغهم وشرف أسرتهم وصلاتهم بالبلاط أو الأسرة الحاكمة ، وعن ذلك عبر قوم صالح ، اذ قالوا : « يا صالح قد كنت فينا مرجوا »(٤) وبذلك أخذوا أهل بيتهم وأسرتهم ، وقد قيل لسيد الرسل صلى

(١) نوح ١٠ ، ١١ ، ١٢ .
(٢) هود ٥٢ .
(٣) هود ٨٨ .
(٤) هود ٦٢ .

الله عليه وسلم « يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما » (١) وكان من تأثير صحبته أن أزواجه رضى الله عنهن كلهن آثرن الله ورسوله وآثرن الفقر والضيق مع الرسول على الرخاء وخفض العيش مع غيره ، ومعيشة النبى صلى الله عليه وسلم وحياته وحياة أهل بيته معروفة فى التاريخ ، معروفة فى السيرة النبوية ، تثير العجب وتسحر النفوس ، وتملأ القلوب عظمة ومهابة ، وتنصب للدعاة والسائرين على منهاج النبوة منارا عاليا من نور وكان شعارها الدائم « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة »(٢) ودعاؤها المقبول : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا »(٣) .

الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الاصلاحية :

ولم تكن دعوة الأنبياء الى الايمان بالآخرة أو الاشادة بها ، كضرورة خلقية أو كحاجة اصلاحية لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ومدنية صالحة ، فضلا عن المجتمع الاسلامى ، وهذا وان كان يستحق التقدير والاعجاب ، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ومنهج خلفائهم اختلافا واضحا ، والفرق بينهما أن الأول — منهج الأنبياء — ايمان ووجدان ، وشعور وعاطفة ، وعقيدة تملك على الانسان مشاعره وتفكيره وتصرفاته ، والثانى اعتراف وتقرير ، وقانون مرسوم ، وان الأولين يتكلمون (عن الآخرة) باندفاع والتذاذ ويدعون اليها بحماسة وقوة ، وآخرون يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية والحاجة الاجتماعية ، وبدافع من الاصلاح والتنظيم الخلقى ، وشتان ما بين الوجدان والعاطفة ، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية .

---

(١) الاحزاب ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) صحيح البخارى .

(٣) صحيح البخارى .

مطالبة بالايمان بالغيب :

ومن سمات دعوة الأنبياء وصحفهم ، ومن ملامحها البارزة أنها تشدد على الايمان بالغيب(١) وتجعله شرطا أساسيا للهداية والانتفاع بالدين ، وشعارا للمهتدين ، وعلامة للمتقين ، فقال : « الم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »(٢) وتطالب به فى قوة وشدة ، وتطلب من الذين يؤمنون بالله ويدخلون فى الاسلام ، — هو دين جميع الأنبياء — أن يصدقوا بصفات الله العلية وقدرته الواسعة ، وأفعاله العجيبة التى تتحدى العقل الضعيف ، والعلم المحدود والتجارب القاصرة أحيانا ، ويصدقوا بكل ما جاء عن الرسل ، وذكر فى الكتب السماوية مما لم يجربه البشر ، ولم يصدقه الحس ، ولم تألفه العقول ، اعتمدا على أخبار الرسل وحدهم ، وصدقهم فى ما يروونه وينسبونه الى الله ، واعتمادا على أن الله على كل شىء قدير ، يخلق ما يشاء ويفعل ما يشاء ، وهو الخلاق المبدع ، فعال لما يريد ، لا يحتاج الى الاسباب التى هو خلقها ، ولا يتقيد بسننه التى هو سنها ، لقد خلق الأسباب ، وسن السنن ، ولكنه لا يزال خالقها ومالكها والمتصرف فيها ، والحاكم عليها ، وانه لم يفلت منه زمامها ، وهى لم تستقل بوجودها وارادتها ، ولم يتوقف أمره على مقدمات ووسائل ، « انما قولنا لشىء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

---

(١) قال العلامة أبو السعود فى تفسيره ، الغيب هو ما غاب عن الحس والعقل غيبة كاملة بحيث لا يدرك بواحد منها ابتداء بطريق البداهة وهو قسمان : قسم لا دليل عليه ، وهو الذى أريد بقوله سبحانه تعالى ، « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو » ، وقسم نصب عليه دليل كالصانع وصفاته ، والنبوات وما يتعلق بها من الاحكام والشرائع واليوم الآخر وأحواله من البعث والنشور والحساب والجزاء » .

(٢) سورة البقرة ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

وقد زخرت الكتب السماوية ، وزخر القرآن الكريم بعجائب صنع الله ، وبالمعجزات والخوارق التى لا يصدقها ولا يسيغها ولا يحتملها الا الايمان بالغيب ، الايمان بقدرة الله المطلقة ومشيئة الله القاهرة ، والاعتماد الكامل على صحة هذه الكتب ، وصدق الرسل الذين نزلت عليهم وأخبروا بها ، أما الايمان الذى لم يقم الا على الحس والتجربة ، والمألوف من الحوادث ، ومطابقة العقل الظاهر ، والعلم المدون فى الكتب ، فانه اما يرفض أن يقبله ويصدق به أو يتعثر ويتلجلج فى قبوله والتصديق به ، أو يؤو له تأويلا يتفق مع ما ألفه ، ولذلك قال : « بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون(١) » وقد ذكر القرآن الفرق بين الفريقين، فريق أكرمه الله بالايمان الكامل وشرح صدره للاسلام ، وفريق ضاق عقله وصدره عن كثير مما جاء من الله ، وصور هذا الفرق تصويرا دقيقا فقال : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون(٢) » .

وقد ذكر القرآن من صفات الله تعالى وأفعاله ما لا يقبل ولا يصدق الا بالايمان بالغيب ، ومن الوقائع والحوادث وآلاء الله وأيامه ، وأخبار الرسل وما أجرى على أيديهم من المعجزات ، وما أظهر لهم من الآيات ، ما لا يطيقه ولا يسيغه الا الايمان بالغيب ، وما لا يقبل التعليل العقلى ولا التطبيق بنواميس الطبيعة الا بتكلف شديد مضحك ، وخروج على قوانين اللغة العربية وجراءة على الله ، وتجن على اللغة وأبنائها ، ووقاحة شديدة(٣) ، كانفلاق البحر لموسى وقومه ، وانفجار أثنتى عشرة عينا من الحجر بضرب موسى ، وارتفاع الجبل كالظلة على طائفة من بنى اسرائيل ، وحياتها بعد موتها ، ومسخ فرق منهم قردة خاسئين ، وحياة المقتول الذى جهل قاتله بضرب جزء من البقرة المذبوحة ، وتحول النار بردا وسلاما على ابراهيم ، ومنطق الطير الذى علمه

(١) النمل ٦٦ .
(٢) الانعام ١٢٥ .
(٣) اقرأ أمثلته الواضحة فى تفسير سيد أحمد خان ومحمد على اللاهورى .

سليمان ، وفهمه لحديث النمل ، ومطاوعة الرياح له ، وسيرها به غدوها شهر ورواحها شهر ، وانتقال عرش ملكة سبأ فى طرفة عين ، وقصة ذى النون ، وخروجه من بطن الحوت ، وولادة عيسى الخارقة للعادة ، وهلاك أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، واسراء الرسول من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى(١) ، ومنه الى السماء ، الى غير ذلك مما زخر به القرآن والصحف السماوية ، ولا يقبله الا الايمان بالغيب ، الايمان الذى آمن بالله الذى وسعت قدرته كل شىء .

ذلك لأن الايمان الذى يقوم على الحس والتجربة ، ويسير مع المألوف المعروف ، ويتقيد بالسنن الكونية والنواميس الطبيعية، والحوادث التاريخية ، ويلجأ دائما الى شهادة العقل ، والحواس الخمسة ، وقوانين العلوم الرياضية والمحسوسات ، انما هو ايمان مقيد مغلول ، وايمان محدود مشروط ، لا يصلح للاعتماد، ولا يساير الأديان ، ولا يتفق مع دعوة الأنبياء ، وما يطلبونه من تصديق مطلق وثقة دائمة وسرعة فى الانقياد والطاعة ، وتفان فى الجهاد والتضحية ، ولا يصلح فى الحقيقة لأن يسمى ايمانا ، انما هو علم وتطبيق وخضوع للمنطق ، وطاعة للحواس والتجارب ولا فضل فيه ، ولا يختص بالدين ، فكل عاقل فى حياته يؤمن بتجاربه ونتائج استقرائه ، وما تؤدى اليه حواسه ويرشد اليه عقله .

وصاحب هذا الايمان « الطبيعى » فى عناء وبلاء مع الكتب السماوية ، والأديان الالهية ، وفى صراع دائم مع روح الديانات ومطالبها وهو كما قال أحد العارفين(٢) : « رجل خشبة لا تطاوع صاحبها فى سرعة المشى ورفع الخطأ بحرية وكثرة التنقلات والاتجاهات » ، وهو اما يلجأ الى التحريف أو التأويل البعيد .

(١) كل ذلك جاء فى القرآن صراحة فى سور كثيرة ومواضع عديدة .
(٢) هو الشيخ جلال الدين الرومى صاحب المثنوى المشهور .

واما يضطر الى الانكار والالحاد ، بنــاء على الفجوة الواســعة بين هذا العلم الجديد والحقائق التى جاءت بها الرسل ، ونطقت بها الكتب ، وبين ما آمن به من المحسوسات والماديات والأصول التى هى مبنية على استقراء محدود ، فقال تعالى : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتيهم تأويله(١) » .

أما المؤمن بالغيب ، المؤمن بقدرة الله المطلقة وارادته الحرة ، المصدق للرسل فى كل ما جاءوا به ونطقوا به ، وأخبروا عن الله فهو فى راحة وهــدوء وانســجام ووئام مع روح هــذه الديانات وأخبارها ، جاهد وفكر مرة ثم استراح ، جاهد وفكر فى الايمان بالله وصدق الرسول وعصمته فى ما يقول : « وما ينطق عن الهوى .. ان هو الا وحى يوحى »(٢) ثم آمن واطمأن وصدق بكل ما جاء به الرسول ، وصح به النقل فى سهولة ويسر ، كأنه كان منه على ميعاد وكان له على أتم الاستعداد .

وقد ذكر الله هذا الفرق بين النفسيتين ، نفسية المؤمن الذى أخضع عقله للصحيح من المنقول والثابت عن الرسول ، وبين نفسية الرجل الذى يحاول أن يخضع الكتاب وما جاء به الرسل لعقله العاجز وعلمه القاصر ، ويسلط عليه التأويل البعيد فقال : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، ومايعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنــا وما يذكر الا أولو الالباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب »(٣) . وذكر نفسية الرجل الذى تعود أن لا يؤمن وأن لا يدين وأن لا يعيش الا على المألوف المعروف الموافق لعقله، الظاهر السطحى ، وشهواته ومصالحه فقال : « ومن النــاس

(١) سورة يونس ٣٩ .
(٢) سورة النجم ٣ ، ٤ .
(٣) سورة آل عمــران ٧ ، ٨ .

من يعبد الله على حرف ، فان أصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين(١) » .

ان أدبنا الاسلامى ، مع الأسف ، ونظامنا التعليمى الدينى ، وأسلوب الدعوة قد قصر تقصيرا كبيرا فى الدعوة الى الايمان بالغيب بايمان وحماسة ، وتساهل فى دعمه وتغذيته والالحاح عليه، وقد اتجه بعض كتابنا المعاصرين — مع ما لهم من فضل فى عرض محاسن الاسلام وتقريبه الى الاذهان — الى صياغة عقلية جديدة للدين ، يتفق فيها مع العلم الحديث والعقلية الجديدة ، فجنى ذلك ، الى حد ومن غير ارادة ، على روح الايمان بالغيب ، واعتاد الشباب الاســلامى المثقف أن لا ينشط الا للمألوف المقرر الواقع المتكرر فى الحياة الطبيعية ، أما ما شذ عنه وخرج عليه ، واحتاج فى تصديقه ، الى ايمان أعمق وأوسع ، واعتماد على صدق المخبر ، فانه لا يقبله الا على مضض وجهد ، ولا ينشط له ولا يرحب به ، ويرى فى ذلك منافاة لمــا سمع وآمن به من أن الاسلام هو دين العقل ودين العلم ، ولا شك أن الاسلام كذلك ، ولا شــك أن صحيح المنقول لا يناقض صريح المعقول ، كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية : ولكن العقل الانسانى طبقات ومستويات ، فعقــل البدوى ينكر ما زخرت به العواصم والمدن الكبيرة فى عصرنا من عجائب المصنوعات ومرافق المدنية ، وعقل العامى ينكر ما وصل اليه الانسان فى العصر الحديث من الاختراع والاكتشاف ، ومن تسخير الطاقات النووية والأقمار الصناعية ، وهكذا ، ثم ان أعلى ما يتصور من العقل النابغ له حدود يقف عندها ورسالة يقتصر على أدائها ، ولا يكلف فوق طاقته ، يعجبنى فى ذلك كلمة لنابغة العرب ، بل نابغة الدنيا فى فلسفة التاريخ وعلوم العمران العلامة ابن خدون قال رحمه الله :

« ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على الاحــاطة بالكائنات وأسبابها ، والوقوف على تفصيل الوجود كله ، وسفه

(١) سورة الحج ١١ .

رأيه فى ذلك ، واعلم أن الوجود عند كل مدرك فى بادىء رأيه منحصر فى مداركه لا يعدوها ، والأمر فى نفسه بخلاف ذلك ، والحق من ورائه ، الا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده فى المحسوسات الأربع المعقولات ، ويسقط من الوجود عنده صنف المسموعات ، وكذلك الأعمى أيضا يسقط عنده صنف المرئيات ، ولولا ما يردهم الى ذلك تقليد الآباء والمشيخة من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به ، لكنهم يتبعون الكافة فى اثبات هذه الأصناف لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة ادراكهم ، ولو سئل الحيوان الأعجم ونطق لوجدناه منكرا للمعقولات وساقطة لديه بالكلية ، فاذا علمت هذا فلعل هناك ضربا من الادراك غير مدركاتنا ، لأن ادراكاتنا مخلوقة محدثة ، وخلق الله أكبر من خلق الناس ، والحصر مجهول والوجود أوسع نطاقا من ذلك والله من ورائهم محيط ، فاتهم ادراكك ومدركاتك فى الحصر ، واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك ، فهو أحرص على سعادتك وأعلم بما ينفعك لأنه من طور فوق ادراكك ، ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك ، وليس ذلك بقادح فى العقل ومداركه ، بل العقل ميزان صحيح ، فأحكامه يقينية لا كذب فيها ، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة ، وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية وكل ما وراء طوره ، فان ذلك طمع فى محال ، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذى يوزن به الذهب ، فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يدرك على أن الميزان فى أحكامه غير صادق ، لكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه(١) » .

البعد عن الأساليب الصناعية والاعتماد على الفطرة السليمة :

ومن سمات النبوة وخصائص الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، البعد عن الأساليب الصناعية والتصنع والتكلف فى حياتهم وسلوكهم بصفة عامة ، وفى دعوتهم وكلامهم وحجتهم بصفة خاصة ، وقد

(١) مقدمة ابن خلدون ، علم الكلام ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ .

كان قول آخر الرسل صلى الله عليه وسلم « قل ما اسألكم عليه من اجر وما أنا من المتكلفين . ان هو الا ذكر للعالمين(١) » . تصويرا لحال جميع اخوانه من الأنبياء والمرسلين السابقين صلى الله عليهم وسلم ، فهم دائما يخاطبون الفطرة السليمة والعقل العام باسلوب فطرى غير ذى عوج ، لا يتوقف فهمه على ذكاء نادر وعلم فائق والمعية بارعة ودراسة واسعة للعلوم ، واحاطة بالمصطلحات العلمية ، ومعرفة المنطق والفلسفة والرياضيات والفلكيات وعلوم الطبيعة ، يفهمه العوام كما يتذوقه الخواص ، وينتفع به الجهلاء كما ينتفع به العلماء ، كل على قدر فهمه وطاقته ، ويطابق حال الأمم التى تعيش على فطرتها وسذاجتها ، كما يطابق حال الأمم المتمرنة المثقفة العالية ، ولا يثيرون الأسئلة الدقيقة ولا يفترضونها ، انما كلامهم كالماء الزلال السلسال الذى يسيغه كل واحد ويحتاج اليه كل واحد ، وقد أجاد شيخ الاسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى فى الاشارة الى هذه النكتة فى كتابه الفريد « حجة الله البالغة » يقول رحمه الله :

« ومن سيرتهم (الأنبياء) أن لا يكلموا الناس الا على قدر عقولهم التى خلقوا عليها ، وعلومهم التى هى حاصلة عند غيرهم بأصل الخليقة ، وذلك لأن نوع الانسان حيث ما وجد فله فى أصل الخلقة حد من الادراك زائد على ادراك سائر الحيوانات الا اذا عصمت المادة جدا ، وله علوم لا يخرج اليها الا بخرق العادة المستمرة كالنفوس القدسية من الأنبياء والأولياء ، أو برياضات شاقة تهيىء نفسه لادراك ما لم يكن عنده بحساب ، أو ممارسة قواعد الحكمة والكلام وأصول الفقه ونحوها مدة طويلة .

« فالأنبياء لم يخاطبوا الناس الا على منهاج ادراكهم الساذج المودع فيهم بأصل الخلقة ، ولم يلتفتوا الى ما يكون نادر الأسباب قلما يتفق وجودها ، فلذلك لم يكلفوا الناس أن يعرفوا ربهم بالتجليات والمشاهدات ولا بالبراهين والقياسات ولا أن يعرفوه

(١) سورة ص ٨٦ ، ٨٧ .

منزها عن جميع الجهات فان ذلك كالممتنع بالاضافة الى من يشتغل بالرياضات ، ولم يخالط المعقوليين مدة طويلة ولم يرشدوهم الى طرق الاستنباط والاستدلالات ووجوه الاستحسانات ، والفرق بين الأشباه والنظائر بمقدمات دقيقة المأخذ ، وسائر ما يتطاول به أصحاب الرأى على أهل الحديث » .

« ومن سيرتهم أن لا يشتغلوا بما لا يتعلق بتهذيب النفس وسياسة الأمة ، كبيان أسباب حوادث الجو من المطر والكسوف والأهله وعجائب انبات والحيوان ومقادير سير الشمس والقمر وأسباب الحواث اليومية وقصص الأنبياء والملوك والبلدان ونحوها ، اللهم الا كلمات يسيرة ألفتها أسماعهم وقبلتها عقولهم يؤتى بها فى التذكير بالاء الله والتذكير بأيام الله ، على سبيل الاستطراد بكلام اجمالى يسامح فى مثله بايراد الاستعارات وبالمجازات » .

« ولهذا الأصل لما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن كمية نقصان القمر وزيادته أعرض الله تعالى عن ذلك الى بيان فوائد الشهور ، فقال : « يسألونك عن الأهلة . قل هى مواقيت الناس والحج » وترى كثيرا من الناس فسد ذوقهم بسبب الألفة بهذه الفنون أو غيرها من الأسباب فحملوا كلام الرسل على غير محمله والله أعلم(١) » .

وقال فى ضمن بيان أسباب التيسير فى هذا الكتاب .

« ومنها أن الشارع لم يخاطبهم الا على ميزان العقل المودع فى أصل خلقتهم قبل أن يتعاونوا دقائق الحكمة والكلام والأصول ، فأثبت لنفسه جهة فقال « الرحمن على العرش استوى » وقال النبى صلى الله عليه وسلم لامرأة سوداء أين الله ؟ فأشارت الى الأسماء ، فقال هى مؤمنة ! ولم يكلفهم فى معرفة استقبال القبلة وأوقات الصلاة والأعياد وحفظ مسائل الهيئة والهندسة ،

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ٨٦ طبع المنيرية القاهرة .

وأشار بقوله : « القبلة ما بين المشرق والمغرب ، اذا استقبل الكعبة » الى وجه المسئلة ، وقال الحج يوم تحجون والفطر يوم تفطرون ، والله أعلم »(١) .

وكذلك قال قبله حجة الاسلام الغزالى وهو يذكر فضل أسلوب القرآن على علم الكلام ، والفرق بينهما ، قال رحمة الله :

فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل انسان ، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ، ويستضر به الأكثرون بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبى والرضيع ، والرجل القوى ، وسائر الأدلة كالأطعمة التى ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى ، ولا ينتفع بها الصبيان أصلا »(٢) ، وقد قال الامام الرازى ، كما ينقل عنه شيخ الاسلام ابن تيمية كثيرا فى كتبه ، لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفى عليلا ولا تروى غليلا ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ، ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى(٣) .

وقد أفضت فى هذا الموضوع لبعد الطبائع والعقول فى هذا العصر عن فهم طبيعة النبوة وسماتها ومنهاج الأنبياء وسيرتهم فى الدعوة والبيان ، وفى حياتهم الخاصة وفى حياتهم مع الناس ، وطغت الأساليب الصناعية والمناهج الكلامية وأساليب الدعوة والتنظيم الحديث حتى صار الناس فى غفلة بل واستهانة بطريق الأنبياء وسيرتهم والتوى عليهم فهم القرآن ولم يستطيعوا تذوق أسلوبه الحكيم ولجأوا الى تأويلات وتكلفات ، ولا تزال سيرة الأنبياء فى الدعوة هى السيرة المثالية ولا يزال أسلوب القرآن هو الأسلوب الفطرى البليغ الحكيم ، الذى يقنع العقول ويفتح القلوب فى كل عصر ، ويجد فيه كل جيل وكل طبقة البيان الوافى والدواء الشافى « تنزيل من حكيم حميد » .

(١) حجة الله البالغة ج ١ ص ١٣ طبع المنيرية القاهرة .
(٢) الجام العوام عن علم الكلام — المطبعة الميمنية ص ٢٠ .
(٣) كتاب النبوات لابن تيمية ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

المحاضرة الثالثة

أئمة الهُدى وقادة الإنسانيّة

عبث القادة والزعماء بالانسانية :

لم يزل الجيل البشرى فى تاريخه الطويل موضوع عبث العابثين من القادة والزعماء ، أو تجربة المجرمين والمجازفين من المشرعين والحكماء ، وقد عبثوا بأبنـــاء جنسهم وعقليتهم ومدنيتهم عبث الوليــد بجــانب القرطاس(١) يطويه وينشره ، ويمده ويكوره ، ويمزقه اذا شاء ، ويحرقه اذا شاء ، وهانت عليهم الحياة الانسانية وطاقاتها ، وملكاتها ومواهبها ، وما أودع الله فيها من طبيعــة الطاعة والتقليد والتفانى والاعتماد على القادة ، فلم يتقوا الله فيها ولم يراعوا فيها حقا ولا حرمة ، ولا الا ولا ذمة ، واتخذوها مطية لشهواتهم ونزعاتهم ، وقنطرة الى سيادتهم ورياستهم وتحقيق

---

(١) مأخوذ من شعر البحترى :

ان الخطوب طويننى ونشرننى عبث الوليد بجانب القــرطاس

أغراضهم ، وقد جر عليها جهل هؤلاء القادة حينا وعدم اعتصامهم من الخطأ والضلال وسوء الفهم وسوء التعبير أحيانا ، والشهوات التى ركبوا عليها ، والنزعات والأنانية ، الفردية والقوميــة ، والعصبية الجنسية والوطنية ، قد جر كل ذلك على الانسانية البائسة شقاء طويلا وويلا عظيما ، وافقد الثقة بقيادتهم ، وشكك تشكيكا كبيرا فى اخلاصهم وصحة معلوماتهم وحسن قصــدهم وسعادة الانسانية تحت قيادتهم واشرافهم ، والتاريخ الانسانى مليىء بهذه المآسى والمهازل ، والمضحكات المبكيات ، ولا تزال شعوب كثيرة فى الشرق والغرب تحت رحمة هؤلاء القادة الأغمار العابثين ، يلعبون بها ويتداولونها كالكرة ويجرون عليها عمليات وتجارب جــديدة كثيرة ، قــد يعترفون بخطئها واخفاقها بعــد قليل ، وقد يفضحها ويزيل عنها الستار ، من يتسلم القيادة منهم ويخلفهم ، وقــد يسجل عليها ذلك التاريخ وتشعر به الأجيــال الآتية .

الحاجة الى الأنبياء المعصومين عن الخطأ :

وشر هذه التجارب المخفقة والنتائج الخاطئة ما كان فى باب العقيدة والايمانيات التى يتوقف عليها المصير ، وتتوقف عليهــا السعادة فى الدنيا ، والنجاة فى الآخرة والتى تشكل الأخلاق الصحية وتكون المدنية الصالحة ، والعبادات التى يتقرب بها الانسان الى ربه والشرائع التى تنظم حياته ، فالعثرة فى ذلك لا تقال ، والكسر فى ذلك لا يجبر .

فمست الحاجة الى قادة أمناء معصومين من الضلال والأوهام والأخطاء ، مبرئين من كل طمع ومساومة وطلب مكافأة ومقابل وربح مادى ، لا تتغلب عليهم الشهوات ، ولا تؤثر فيهم النزعات لا يصدرون عن رأيهم ومعلوماتهم الناقصة ، وتجاربهم القاصرة ومصالحهم الخاصة ، واذا صدَر منهم خطأ فى الاجتهاد والتقدير ، نبههم الله على ذلك فلم يمكثوا عليه ولم يتمادوا فيه .

أمانة واخلاص :

ولذلك نقرأ فى سورة الشعراء ، أن كل نبى يبعث على أمته يؤكد لهم أمانته واخلاصه واقرؤوا معى الآيات التالية :

ــ « كذبت قوم نوح المرسلين . اذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين(١) » .

٢ ــ « كذبت عاد المرسلين . اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين »(٢) .

٣ ــ « كذبت ثمود المرسلين . اذ قال لهم أخوهم صالح الا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين »(٣) .

٤ ــ « كذبت قوم لوط المرسلين . اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين »(٤) .

٥ ــ « كذبت أصحاب الأيكة المرسلين . اذ قال لهم شعيب الا تتقون . انى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين »(٥) .

هذه الوحدة التى تربط بين هؤلاء الأنبياء المبعوثين فى أمم

---

(١) الشعراء ١٠٥ ــ ١٠٩ .
(٢) الشعراء ١٢٣ ــ ١٢٧ .
(٣) الشعراء ١٤١ ــ ١٤٥ .
(٤) الشعراء ١٦٠ ــ ١٦٤ .
(٥) الشعراء ١٧٦ ــ ١٨٠

مختلفة وفى عصور مختلفة ذات معنى عميق ، وهو أن الأمانة وهى الكلمة الجامعة بين معانى الصدق وصحة التلقى من فوق ، التلقى من الله العليم الحكيم ، وصحة الالقاء الى أسفل ، الى الأمة التى يبعث فيها النبى ، هو الركن الأساسى فى مفهوم النبوة والرسالة ونظامها ، ولا أجمع لهذه المعانى ولا أبلغ من كلمة « الأمانة » فى لغة العرب ، وقد شاءت الحكمة الالهية أن يوصف بها الرسول العربى صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وألهمت أهل مكة الأميين أن يلقبوه بالصادق الأمين .

وكذلك الاخلاص والنزاهة والبعد من كل طمع والزهد فى كل منفعة شخصية أو منفعة ترجع الى الأسرة والعشيرة والأولاد ، وقد اتفقت الفطر السليمة والعقول المستقيمة على حب هذا الداعية المخلص ، الناصح الأمين ، ولذلك قال صالح ، فى أسف واستغراب « يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين »(١) . وقال الموجه الكريم الذى جاء من أقصى المدينة يسعى « يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون(٢) » .

وهذا هو المعنى الذى أكده موسى عليه السلام لفرعون فقال « وقال موسى يا فرعون انى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله الا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى اسرائيل(٣) » .

أمان وضمان للاتباع :

وقد كان فى هذه « العصمة » والأمانة والنزاهة ، التى اتصف بها الأنبياء ضمان لسلامة أتباعهم وأمتهم فى العقائد والشرائع ،

---

(١) الاعراف ٧٩ .
(٢) سورة يسين ٢٠ ، ٢١ .
(٣) الاعراف ١٠٤ ، ١٠٥ .

وأمان مما استهدفت له الأمم والأجيال البشرية الماضية من الوقوع فى المهالك ، والتورط فى الشبهات ، والحيرة فى أمر هؤلاء القادة ونتيجة اتباعهم .

حقيقة العصمة وطرقها :

يقول شيخ الاســلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى فى كتابه « حجــة الله البالغة » وهو يذكر ما يجب أن يتصف به هــداة السبل ومقيمو الملل — يعنى الأنبياء — سلام الله عليهم ، يقول رحمه الله :

« ثم لا بد له لهذا العالم أن يثبت على رؤس الأشهاد أنه عالم بالسنة الراشدة وأنه معصوم فيما يقوله من الخطأ والاضلال ، ومن أن يدرك حصة من الاصلاح ويترك حصة أخرى لا بد منها ، وذلك ينحصر فى وجهين ، أما أن يكون راويا عن رجل قبله انقطع عنــده الكلام لكونهم مجتمعين على اعتقاد كماله وعصمته وكون الرواية محفوظة عنــدهم ، فيمكن له أن يؤاخذهم بما اعتقدوه ويحتج عليهم ويفحمهم أن يكون هو الذى انقطع عنــده الكلام وأجمعوا عليه ، وبالجملة فلا بد للناس من رجل معصوم يقع عليه الاجماع يكون فيهم أو تكون الرواية محفوظة عندهم وعلمه بحالة الانقياد وتوليد هــذا السنن منها ووجوه منافعها وعلمه الآثام ووجوه مضارها لا يمكن أن يحصل بالبرهان ولا بالعقل المتصرف فى المعــاش ولا بالحس ، بل هى أمور لا يكشف عن حقيقتها الا الوجدان ، فكما أن الجوع والعطش وتأثير الدواء المسخن أو المبرد لا يدرك الا بالوجدان . فكذلك معرفة ملاءمة الشىء للروح ومباينته لها لا طريق اليها الا الذوق السليم ، وكونه مأمونا عن الخطأ فى نفسه انما يكون بخلق الله علما ضروريا فيه بأن جميع ما أدرك وعلم حق مطابق للواقع بمنزلة ما يقع للمبصر عند الابصار ، فانه اذا أبصر شيئا لا يحتمل عنده أن يكون عينه مؤقتة وأن يكون الابصار على خــلاف الواقع ومنزلة العام بالموضــوعات اللغوية ، فان العربى مثلا لا يشك أن الماء موضوع لهذا العنصر ولفظ الأرض لذلك مع أنه لم يتم له على ذلك برهــان وليس بينهما ملازمة

عقلية ، ومع ذلك فانه يخلق فيه علم ضرورى ، وانما يحصل ذلك فى الأكثر بأن يكون لنفسه ملكة جبليــة ، يكون بها تلقى العلم الوجدانى على سنن الصواب دائما ، وأن يتتابع الوجدان ويتكرر تجربة صدق وجدانه ، وعند الناس(١) ، انما يكون بأن يصحح عندهم بأدلة كثيرة برهانية أو خطابية أن ما يدعو اليه حق ، وأن سيرته صالحة يبعد عنها الكذب ، وأن يروا منه آثار القرب كالمعجزات واستجابة الدعوات ، حتى لا يشكوا أن له فى التدبير العــالى منزلة عظيمة وأن نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة ، وأن مثله حقيق بأن لا يكذب على الله ولا يباشر معصية ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفا عظيما وتصيره عندهم أحب من أموالهم وأولادهم ، والماء الزلال عند العطشان ، فهذا كله لا يتحقق انصباغ أمة من الأمم بالحالة المقصودة بدونه ، ولذلك لم يزل المشغولون بنظائر هــذه العبــادات يسندون أمرهم الى من يعتقدون فيه هــذه الأمور ، أصابوا أم أخطؤوا والله أعلم(١) » .

جديرون بالطاعة والاتباع :

ان هذه الجماعة التى هذا شأنها فى العصمة وصحة العلم ، وهذه منزلتها من الأمانة والاخلاص والنزاهة ، وقد أفرغها الله فى قالب من الاعتــدال والسداد ، ورباها فأحسن تربيتها ، وأدبها فأحسن تأديبها « ولتصنع على عينى(٢) » « أخلصناهم بخالصــة ذكرى الدار ، وأنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار »(٣) ، هى الجديرة الخليقة — بحكم العقل والذوق والمنطق — بالطاعة والاقتداء

---

(١) أى كونه مأمونا من الخطأ عند الناس ، يكون اذا صح عندهم أن ما يدعو اليــه حق الخ .

(٢) حجة الله البالغة « باب الحاجة الى هداة السبيل ومقيمى الملل » ج ١ ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٣) طــه ٣٩ .

(٤) سورة ص ٤٥ ، ٤٧ .

والتقليد والاتباع ، ولذلك قال الله تعالى بعد ما ذكر جماعة من أنبيائه المكرمين ، وذكر ما أكرمهم به من الهداية والصلاح والفضل على العالمين ، والاجتباء والكتاب والحكم والنبوة « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده(١) » .

محط العناية والرضا :

لقد أحاطت العناية الالهية والقبول الرحمانى بنفوس الأنبياء ، والحياة التى كانوا يعيشونها ، وشملت أخلاقهم وعاداتهم وسننهم وطرق معيشتهم ، واختار الله طريق حياتهم من بين طرق الحياة وأخلاقهم من بين أخلاق الناس ، وعاداتهم من بين العادات الكثيرة التى تعودها الناس ، حتى اذا سلكوا شعبا وواديا ، وسلك الناس شعبا وواديا ، كان شعبهم وواديهم أحب الى الله من شعب الناس وواديهم ، ونفذت فيهم وفى كل ما اختاروه وأصبح لهم شعارا وبهم خاصا محبة الله ورضاه ، حتى أصبح تقليدهم واتباعهم واتخاذ شاراتهم وشعائرهم والتخلق بأخلاقهم والتشبه بهم ، أقرب الأسباب وأقرب الطرق وأيسرها بجلب محبة الله ، وصار من اتبعهم وتشبه بهم من المحبوبين ، فضلا عن أن يكون من المحبين ، لأن المتشبه بالحبيب حبيب وبالبغيض بغيض ، وأصبح ذلك أصلا من الأصول والقانون الذى لا يتبدل ولا يتغير على مر الزمان ، واختلاف المكان ، وأصبحت الدعوة اليه عامة وعلانية ، وأعلن الله تعالى على لسان خاتم النبين صلى الله عليه وسلم « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم »(٢) ، وبالعكس من ذلك كان الميل الى الظالمين والكفار وايثار طريقتهم والسير بسيرتهم جالبا لسخط الله والبعد عنه ، فقال : « ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون »(٣) .

---

(١) الانعام ٩٠ .

(٢) آل عمران ٣١ .

(٣) هود ١٣٨ .

سر تفضيل عادات وأوضاع على عادات وأوضاع ، وحقيقة الشعائر :

وهذا السر ما تسميه الشريعة بخصال الفطرة وسنن الهدى ، وتشيد بها وتحث على الأخذ بها ، ومجموع هذه الأخلاق والعادات يحدث انصباغا بصبغتهم وهى الصبغة التى يقول الله عنها : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون »(١) ، وهذا سر تفضيل الله عادة على عادة وخلقا على خلق ، ووضعا على وضع ، وهيئة على هيئة ، وهذا سر ما تتخذه الشريعة الاسلامية شعارا لأهل الايمان ولأهل الطاعة وسنة موافقة للفطرة ، وصده علامة للانحراف وشعارا لأهل الجهل والسفاهة ، ولأهل الجاهلية والكفر ، ولا فرق بينهما ، الا أن الأول كان شعارا للأنبياء ومن عادتهم واختيارهم ، وفيه تشبه بهم ، والثانى شعار لأهل الكفر وعادة من عادات الجاهلية ، ومن أوضاع الشيطان وأتباعه وتشبه بهم ، ويندرج تحت هذا الأصل كثير من آداب الأكل والشرب واللباس والزينة ، والنوم والعشرة والاختلاط وهو باب واسع من أبواب السنة وفقه الدين .

لماذا كانت اليد اليمنى أفضل من اليسرى وخصت بالأعمال الفاضلة المستجادة كالأكل والشرب والاشارة وتناول شىء ذى بال واعطائه ، وكل ما فيه اكرام ، وخصت اليسرى بالاستبراء وكل ما فيه لوث واهانة ؟ وكلتا اليدين للانسان وكلتا اليدين من خلق الله وصنعه ؟ وكثير من الأمم الجاهلية ، وممن نشأ بعيدا عن تربية الأنبياء وتعليماتهم لا يفرق بينهما ، ولا يلتزم هذا الأدب ، ويضع احداهما موضع الأخرى ؟ لا سبب لذلك الا أن الأنبياء عامة — ورسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة — كانوا يفعلون ذلك بالهام من الله أو بسائق من فطرتهم السليمة ، التى كانت دائما على اتصال ومناسبة بما يرتضيه الله تعالى من الأخلاق والعادات والأوضاع ، ولماذا كان التيمن محمودا مطابقا للفطرة السليمة ومن شعائر الحضارة الاسلامية ؟ لأنه كان من

---

(١) البقرة ١٣٨ .

سنة الأنبياء عليهم السلام ومن عادات الرسول صلى الله عليه وسلم وذوقه ، فعن عائشة قالت : كان النبى صلى الله عليه وسلم يحب التيمن ما استطاع فى شأنه كله ، فى طهوره وترجله وتنعله(١) .

وعلى ذلك تقاس جميع خصال الطهارة وخصال الفطرة التى نسبت فى الحديث الى سيدنا ابراهيم صلى الله عليه وسلم .

مؤسسو حضارة وأسلوب خاص من الحياة :

ان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لم يدعوا الى عقيدة وشريعة فحسب ولم يحملوا دينا جديدا — هو الاسلام — فحسب ، بل كانوا مؤسسى حضارة ومدنية وعشرة واجتماع وأسلوب من الحياة جديد خاص ، جدير بأن يسمى الحضارة الربانية ، ولهذه الحضارة أصول ودعائم وعلامات وشعائر ، تمتاز بها عن الحضارات الأخرى ، الحضارات التى تسمى الحضارات الجاهلية ، امتيازا واضحا ، امتيازا فى الأساس ، وفى الروح ، وفى الأشكال والتفاصيل .

حضارة ابراهيمية محمدية :

وكان ابراهيم الخليل الحنيف صلى الله عليه وسلم امام هذه الحضارة الحنيفية المؤسسة على توحيد الله تعالى والايمان به وذكره ، المؤسسة على متابعة الفطرة السليمة والقلب السليم ، المؤسسة على الحياء والأدب مع الله ، والانابة والرحمة على بنى النوع ، ورقة العاطفة ، وقد سرت أخلاقه فى هذه المدنية ومنهج الحياة « ان ابراهيم لحليم أواه منيب »(٢) « ان ابراهيم لأواه

(١) صحيح البخارى .
(٢) هود ٧٥ .

حليم »(١) . وكان ابراهيم ولا يزال مؤسس هذه الحضارة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حفيده مجدد هذه الحضارة ومتممها ، وهو الذى بعث فيها الروح وأفاض عليها الخلود وأرسى قواعدها ، وشد بنيانها وجعلها خالدة باقية ، عالمية .

خصائص هذه الحضارة وسماتها :

« ان هذه الحضارة الابراهيمية المحمدية ، لا تعرف الوثنية والشرك ولا تسمح به فى لون من الألوان ، فى أى مكان وزمان ، فكان أعظم دعاء ابراهيم وأكبر همه « واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام »(٢) ، وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعا « فاجتنبوا الرجس من الأوثان ، واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به »(٣) .

انها لا تعرف التهالك على الشهوات والتكالب على حطام الدنيا والتناحر على جيف المادة والتقاتل فى سبيل الحكومات والمناصب ، انها دعوة لم تزل عقيدتها « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين »(٤) .

انها حضارة لا تعرف الفصل بين الانسان والانسان ، والتمييز بين الألوان والأوطان « فالناس كلهم من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى الا بالتقوى » « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم(٥) » وقد قال خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية »(٦) وقال

(١) التوبة ١٤ .
(٢) سورة ابراهيم ٣٥ .
(٣) الحج ٣٠ ، ٣١ .
(٤) القصص ٨٣ .
(٥) سيرة ابن هشام .
(٦) رواه أبو داود .

لمن هتف بالأنصار ومن هتف بالمهاجرين : « دعوها فانها منتنة »(١) .

انها حضارة تعرف فى العقيدة بالتوحيد ، وفى الاجتماع باحترام الانسانية والمساواة بين أفرادها ، وفى دائرة الأخلاق والمنهج بتقوى الله والحياء والتواضع ، وفى ميدان الكفاح بالسعى للآخرة والجهاد لله ، وفى ساحة الحرب بالرحمة والعاطفة الانسانية ، وفى أنواع الحكومات بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية ، والخدمة على الاستخدام ، تعرف فى التاريخ بخدمة الانسانية المخلصة ، وانقاذها من براثن الجاهلية ، والدعوات ، المضلة الطاغية وفى العالم بآثارها الزاهرة الزاهية وخيراتها المنتشرة الباقية .

انها حضارة عجنت مع اسم الله ومراقبته ، وصبغت بصبغة الله وقامت على أساس الايمان فلا يمكن تجريدها عن الطابع الدينى واللون الربانى والروح الايمانى(٢) .

دعوة القرآن الى اتباع الانبياء وحثه على تقليدهم :

ان القرآن يدعو الى اتباع الأنبياء والأخذ بسيرتهم والسير على منهجهم العام فى الحياة والتشبه بهم ما أمكن فيقول : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيرا »(٣) ويأمر المسلمين بأن يدعو دائما بقولهم : « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين » ولا شك أن فى مقدمة هؤلاء المنعم عليهم وعلى رأسهم الأنبياء والمرسلون ، وجعل هذا الدعاء فى صلب الصلاة ، وكلما كان الانسان أتبع لسننه ، وأكثر تخلقا بأخلاقه وأشبه به هديا ودلا وسمتا كان أقرب الى الله وأعلى منزلة عنده .

---

(١) رواه البخارى .
(٢) رسالة « ملة ابراهيم وحضارة الاسلام » المؤلف بتغير يسير ص١٣، ١٤، ١٥
(٣) الاحزاب ٢١ .

الاجلال المنبعث من اعماق القلب والحب العاطفى :

والقرآن يطلب للأنبياء الاجلال المنبعث من أعماق القلب والتوقير والتبجيل العميق والحب العاطفى ولا يكتفى بالطاعة المجردة من كل عاطفة وحب واجلال ، كطاعة الرعية والسوقة للملوك وكثير من قادة الجنود وزعماء الأحزاب ، ولا يكتفى بدفع الضرائب وتنفيذ الأحكام ، فقال : « لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه(١) » وقال « فالذين آمنوا به وعزروه(٢) » ولذلك أمر بكل ما يحفظ لهم حرمتهم واحترامهم ، ونهى عن كل ما يحط مكانتهم ويجرح كرامتهم ، ويهون شأنهم ويفقد مهابتهم ، فقال « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم »(٣) وقال « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا(٤) » ولذلك حرم زواج أزواجه من بعد وفاته فقال « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ، ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ، ان ذلكم كان عند الله عظيما(٥) » .

وقد جاءت النصوص الصريحة الكثيرة تطلب حب الرسول وايثاره ، على النفس والأهل والولد ، فقد جاء فى الصحيحين : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين » وكذلك « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان . من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما ، الحديث » .

تأثير عاطفة الحب وسر تفانى الصحابة فى طاعة الرسول :

لأن الطاعة الكاملة المخلصة والتخلقبأخلاق الرسول والانصباغ

---

(١) الفتح ٩ .
(٢) الاعراف ١٥٧ .
(٣) الحجرات ٢ .
(٤) النور ٦٣ .
(٥) الاحزاب ٥٣ .

بصبغته وايثار شريعته ورضاه على هوى النفس والعادات والأعراف ، وبذل المهجة والنفس والنفيس فى سبيل دعوته ، لا يتأتى الا بهذا الاجلال المنبعث من أعماق القلب ، والحب العميق الذى يملك على الانسان مشاعره ، ويستولى على قلبه ولذلك قال « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدى القوم الفاسقين(١) » ولذلك كان الصحابة رضى الله عنهم من أحرص الناس على طاعته وأسرعهم اليها وانشطهم فيها ، وأصبرهم عليها ، ولهم فى ذلك القدح المعلى والنصيب الأوفر الى يوم القيامة ، ومنهم أبو بكر الصديق الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم عليه وأحب اليه من نفسه ، وحياته وصحته أعز عليه من حياته وصحته ، وقد ضربه عتبة بن ربيعة بنعلين مخصوفين وبحرفهما لوجهه ونزلا على بطنه حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب لا يشكون فى موته ، ولما تكلم آخر النهار قال ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ولما قيل له انه سالم صالح قال ان لله على الا أذوق طعاما ولا أشرب شرابا أو آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) .

ومنهم المرأة الانصارية التى كان الناس يخبرونها بشهادة أعز اقاربها . أبيها وأخيها وزوجها يوم أحد ، فقالت ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا خيرا ، هو بحمد الله كما تحبين، فلما رأته قالت كل مصيبة بعدك جلل(٣) .

ومنهم عبد الله بن عبد الله بن أبى ، سمع أن والده قال : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فلما قدموا المدينة قام عبد الله على بابها بالسيف لأبيه ، ثم قال أنت القائل لئن

(١) البراءة ٢٤ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠ .

(٣) ابن اسحاق والبيهقى .

رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبدا الا باذن من الله ورسوله ، ولم يسمح له بالدخول حتى أرسل اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره بأن يخلى سبيله(١) .

ولذلك كله استطاعوا أن يضعوا رؤوسهم ومهجهم على أكفهم وراحاتهم ، وهانت عليهم الحياة ، وطابت لهم هجرة الأوطان وهجر الاخوان ، والشهادة فى سبيل الله ، ولذلك استطاعوا أن يقولوا عند وقعة بدر ان أمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك(٢) .

نتيجة ضعف عاطفة الحب فى العالم الاسلامى اليوم وتأثير ذلك فى الحياة :

وما ضعف العالم الاسلامى فى العمل بالشريعة اليوم والتكاسل فى الطاعات والابتعاد عن كل ما يشق على النفس ، وما تهاون كثير من طبقة العلماء والمثقفين الثقافة الدينية الواسعة بالسنن وهدى الرسول الا لضعف هذا الاجلال الذى اهتم به القرآن كثيرا، وضعف عاطفة الحب أو فقدانها ، العاطفة التى كانت ولا تزال مصدر قوة لا نظير لها ومرد عجائب ومعجزات فى التاريخ ، وهو فراغ لايملأ بأكبر مقدار من العقل والعزم والنظام ، وخسارة لا تعوض بشىء .

لا فلاح لأمة بعث فيها النبى الا فى اتباعه وايثاره :

وفى الأخير فان مصير الأمم التى يبعث فيها هؤلاء الأنبياء مربوط باتباعهم والانقياد لهم ، والاجتماع تحت رايتهم،والتمسك بأهدابهم والسير فى ركابهم بعز عزيز وذل ذليل ، فلا تفلح أمة مهما أوتيت

(١) تفسير الطبرى ج ٢٨ .

(٢) قاله سعد بن معاذ — ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .

من الحول والطول والذكاء والوسائل ، ومهما تقدم الزمان وتقدمت الحضارة وتنوعت الفلسفات وتغيرت الأحوال الا باتباع هذا النبي والحب له والانتصار لدعوته ، رضيت بذلك أم أبت ، وكل أمة تحاول أن تنال العزة والسؤدد والكرامة والقوة الحقيقية عن غير هذا الطريق ، معتمدة على سياستها الحكيمة ، أو الانضمام الى معسكر من المعسكرات القوية ، فلن يكون ذلك وليس عاقبتها الا الذل والهوان والاخفاق الذريع والانشقاق الداخلى والخيبة عاجلا او آجلا .

وضع العالم الاسلامى والعربى اليوم وسببه :

والعالم الاسلامى بصفة عامة والعالم العربى بصفة خاصة خير شاهد على ذلك ، فقد كبر على البعض فى الزمن الأخير اتباع الرسول النبى الأمى صلى الله عليه وسلم وثقل عليهما ايثار ما أمر به وطلبه ، واستنكفا عن الانتساب اليه والافتخار به والظهور فى مظهر دينه أمام الأمم والحكومات ، وآمنا بضرورة التنصل عن دينه وأحكامه وحضارته ، وآمن أكثر أقطارهما بالفلسفات الحديثة . والى الآن لم يقضيا وطرا ولم يهزما عدوا ، وهذا هو العالم العربى ، ولا معذرة ولا استعناء ، موزع على نفسه ، ولم يحتل المكان اللائق به فى زعامة العالم الاسلامى أو قيادة العالم الانسانى ، وفى كل يوم مشكلة طريفة ، وقضية جديدة .

وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه اذ قال لأصحابه العرب فى الشام وهم كبار الصحابة وقادة الفتح الاسلامى وقد عيروه ببعض صنيعه الذى لا يتفق مع رئيس حكومة كبيرة :

« انكم كنتم أذل الناس ، فأعزكم الله بالاسلام فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله(١) » .

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٦٠ .

المحاضرة الرابعة

بين الإرادة الإلهية والأسباب المادية

تفاوت ما بين الأنبياء وخصومهم فى الأسباب المادية :

ان القارىء للقرآن — وهو الكتاب الوحيد الذى حفظ تاريخ الأنبياء وحوادث حياتهم وأخبار دعوتهم — يلاحظ باستمرار ووضوح ، أن الأنبياء بعثوا دائما فى بيئة مظلمة خانقة ، معارضة لدعوتهم ، ثائرة عليها ، وبعثوا فى ضعف شديد وفقر تام فى الأسباب ، وكان كل ما يعتز به انسان من مال وملك وشيع وأنصار ، والأسباب المادية فى جانب أعدائهم ، وفى كفتهم ، وتحت تصرفهم ، ولم يكن فى جانب الأنبياء وكفتهم الا الايمان القوى الذى لا يرقى اليه شك ، والاخلاص الكامل الذى لا يشوبه طمع ونفاق ، واعتماد على الله وابتهال الى الله ، واطراح على عتبة عبوديته ، والعمل الصالح ، والتقوى ، وحسن السيرة ، والأخلاق الفاضلة ، وزيادة الى كل ذلك — زيادة لا يستهان بقيمتها — الدعوة الايمانية الصحيحة التى تكفل الله بنصرها فقال : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد(١) » ، وقال « كتب

---

(١) المؤمن ٥١ .

الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز »(١) ، وقال : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . انهم لهم المنصورون ، وان جندنا لهم الغالبون »(٢) .

شىء مقصود ومطرد مستمر :

ويبدو لقارىء القرآن أن ما حكاه الله تعالى من قصص الأنبياء والرسل وأخبار دعوتهم ، وما لقيته من معارضات ومحاربات ومؤامرات ، وتألب القوم عليها ، وتنمرهم لها ورميهم عن قوس واحد ، والحرب الشعواء التى كانت تقع دائما بين ضعيف فقير أعزل ، وبين جماعة غنية قوية قاهرة ، تملك جميع الأسباب ، أو ملك مستبد طاغية ، ثم النتيجة واحدة دائما ، وهو انتصار الدعوة النبوية وأصحابها على ضعفهم وفقرهم ، وهلاك الأغنياء الأقوياء والملوك الجبابرة رغم قوتهم وبطشهم ، أو خضوعهم لهذه الدعوة أو قبولهم لها ، ويبدو لقارىء القرآن أنه شىء مقصود ليس من المصادفات — وقدرة الله المحيطة الشاملة لا تعرف المصادفات ولا تعرف البخت والاتفاق ، وانما هى منطق الضعفاء الجهلاء — وأنه شىء مطرد مستمر ، وأنه دعوة الى الايمان بالقدرة الكاملة التى خلقت لأسباب و تزال تملكها وتصرفها كيف تشاء ، وتشغلها متى تشاء ، وتعطلها متى تشاء ، وأنها — كما قلنا فى المحاضرة السابقة — لم تعطل ولم تضعف بعد أن خلقتها ، ولم تتخل عنها بعد أن ملكتها من أرادت ، وانها ليست فى الخلق والابداع والنصر والغلبة فى حاجة الى الأسباب ، أنه دعوة الى الايمان بقوة الحق وصلاحيته للبقاء ، وبضعف الباطل وسخافته وتهيؤه للانكسار والانحدار « قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد »(٣) . « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون »(٤) « فأما الزبد فيذهب جفاءا ،

(١) المجادلة ٢١ .
(٢) الصفت ١٧١ — ١٧٣ .
(٣) سورة سبأ ٤٩ .
(٤) الانبيـاء ١٨ .

وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال »(١) .

تشجيع على التجربة واطماع فى رحمة الله :

وهذا النمط من القصص القرآنية دعوة الى التوكل على الله تعالى ونصره ، وان اختلف الزمان والمكان ، والاعتماد على الدعوة وحسن السيرة والعمل الصالح . وان اكفهر الجو وقسا الزمان، وان معجزات النصر وعجائب القدرة الالهية تتكرر ، فاذا ذكر القرآن ما أكرم الله به الرسل من النصر والفتح المبين ، وقبول الدعاء والغلبة على الأعداء ذكر ما يشجع أتباعهم والحاملين لدعوتهم على هذه التجربة ، ويطمعهم فى رحمة الله ، يقول بعد ما ذكر ما أكرم الله به نبيه أيوب « رحمة من عندنا وذكرى للعابدين »(٢) ، ويقول عن يونس : « فاستجبنا له ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين »(٣) ، ويقول : « سلام على موسى وهارون . انا كذلك نجزى المحسنين »(٤) ، ويقول : « سلام على آل ياسين . انا كذلك نجزى المحسنين »(٥) ، ويقول بعد ما يذكر قصة لوط : « نعمة من عندنا . كذلك نجزى من شكر »(٦) ولذلك لم تكن هذه القصص التى تكون جزءا كبيرا من القرآن قصص فكاهة وتسلية أو مادة معلومات تاريخية ، انما هى موعظة وذكرى وحث ودعوة وارشاد وتوجيه وتقوية وتشجيع « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(٧) ،

(١) الرعد ١٧ .
(٢) الانبيـاء ٨٤ .
(٣) الانبيـاء ٨٨ .
(٤) ص ١٢٠ ، ١٢١ .
(٥) ص ١٣٠ ، ١٣١
(٦) القمـر ٣٥ .
(٧) يوسف ١١١ .

« وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذا الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين »(١) .

سنة الله مع جميع انبيائه :

لقد كانت هذه سنة الله مع جميـــع أنبيائه ، فنوح يقول له قومه : « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون »(٢) ويقول مبتهلا الى الله مستغيثا على ضعفه : « انى مغلوب فانتصر »(٣) ولوط يقول لقومه : « لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد »(٤) .

وشعيب يقول له قومه « ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا . ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز »(٥) وفرعون يقول عن نفسه وعن موسى فى صراحة ووقاحة « ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم اليس لى ملك مصر وهذه الأنهـــار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خيرمن هذا الذى هو مهين ولا يـــكاد يبين . فلولا القى عليه أسورة من ذهب أو جاء معـــه الملائكة مقترنين »(٦) .

أما أممهم التى بعثوا اليها فقد كانت ذات الطول والحول وذات العدة والعتاد ، وذات الزروع والضروع ، وقد مر قول هود عليه السلام لقومه « واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعـــام وبنين . وجنات وعيون »(٧) وقول صالح لقومه : « أتتركون فى ما ها هنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم .

---

(١) هود ١٢٠ .
(٢) الشعراء ١١١ .
(٣) القمـــر ١٠ .
(٤) هود ٨٠ .
(٥) هود ٩١ .
(٦) الزخرف ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .
(٧) الشعراء ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ .

وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين »(١) وقول شعيب لقومه : « انى أراكم بخير »(٢) ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ اقرؤوها مجموعة فى قوله تعالى « ألم يروا كم أهلكنا من قبلهـــم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهـــار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشـــأنا من بعدهم قرنا آخرين(٣) » .

أعظم تحد للمادية المسرفة وأكبر ثورة على عبادة الأسباب :

أما قصة ابراهيم المعادة المكررة فى القرآن فهى أعظم تحـــد لتأثير الأسباب واستقلالها ، وأعظم شاهد للاستخفاف بقوتهـــا وأصحابها ، وأعظم دليل على ضعفها وعدم غنائها عن أربابها ، وكأن ابراهيم عليه الصلاة والسلام كان مأمورا بالاستخفاف بهذه الأسباب وأربابها المدلين بها ، المقدسين لهـــا ، العاكفين على عبادتها والاعتمـــاد عليها ، وكأنه ، وهو رســـول التوحيد وامام الموحدين فى عصره ، كانت لذته وشفاء نفسه وغذاء روحه وقرة عينه فى الاستهزاء بهذه الأسباب ، وعدم الاحتفال بها ، والتغلب عليها بنصر الله ، وابطال خواصها وطبائعها المودعة فيها ، وكأنه كان يلـــتزم فى كل خطـــوة من خطوات رحلته الايمانية التوحيدية الطويلة الموفقة ، أن يدوسها بقدمه ويسخر منها بعزمه ويسجل انتصارا جديدا للايمان على الشك ، والروح على المادة ، والتوحيد على نظام الشرك ، وقد عاش طول حياته ثائرا على ما حوله من القوة والسلطان وعبادة المـــادة والمعدة ، والآلهة الزائفة والقوى المخيفة .

والسر فى ذلك « أن العالم فى عصر ابراهيم عليه السلام كان خاضعا للأسباب خضوعا شديدا ، واعتمد الناس عليها اعتمـــادا

---

(١) الشعراء ١٤٦ — ١٤٩ .
(٢) هود ٨٤ .
(٣) الانعـــام ٦ .

زائدا ، حتى أصبحوا يعتقدون أنها مؤثرة مستقلة قائمة بذاتها ، وحتى أصبحت أربابا من دون الله ، واصبح هذا الخضوع للأسباب وتقديسها والاعتماد عليها وثنية أخرى غير الوثنية التى أغرقوا فيها ، وغلوا فى عبادة الأصنام والأوثان ، وكانت حياة ابراهيم ثورة على الوثنيتين ، ودعوة الى التوحيد النقى الخالص ، وتحقيقا لقدرة الله الواسعة المحيطة بكل شىء ، وأنه يخلق الأشياء من عدم وأنه يخلق الأسباب ويملكها ويفصل الأسباب عن المسببات، وينزع عن الأشياء خواصها وطبيعتها ويستخرج منها أضدادها ، ويسخرها لما يشاء ومتى يشاء .

أشعل الناس له النيران وقالوا « حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين(١) » وكان ابراهيم يؤمن بأن النار خاضعة لارادة الله تعالى ، ليس الاحراق لها طبيعة دائمة لا تنفك عنها ، انما هى طبيعة مودعة أمانة فيها ، اذا أراد أطلق لها العنان ، واذا أراد أمسك الزمام ، وحولها الى برد وسلام ، فخاض فيها مؤمنا مطمئنا واثقا ، وهكذا كان « قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين(١) » .

واعتقد الناس أنه لا حياة الا بالخصب والميرة والماء الغزير ، فكانوا يرتادون لأسرهم وأبنائهم ، ويختارون لسكنهم ووطنهم أراضى مخصبة تكثر فيها المياه ويتوفر فيها الخصب ، وتسهل التجارة والصناعات ، وقد ثار ابراهيم على هذه العادة المتبعة والعرف الشائع والاعتماد على الأسباب فاختار لأسرته الصغيرة ، المكونة من أم وابن ، واديا غير ذى زرع ، لا زراعة فيه ولا تجارة ، منقطعا عن العالم ومراكزه التجارية ومواضع الرخاء والثراء ، ودعا الله تعالى أن يوسع لهم الرزق ، ويعطف اليهم القلب ، ويجنى اليهم الثمرات ، من غير سبب وطريق معروف فقال : « ربنا انى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند

---

(١) الانبياء ٦٨ .

(٢) الانبياء ٦٩ ، ٧٠ .

بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »(١) .

وأجاب الله دعاءه فضمن لهم بالرزق والأمن وجعل بلدهم محطا للخيرات والثمرات « أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون »(٢) « فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف(٢) » ، تركهم فى أرض لا أثر فيها لما يروى الغلة ويبل الحلقوم ، فاذا بماء يفور من الرمال ويفيض من غير انقطاع يشربه الناس فى سخاء ويحملونه الى بلادهم ، ويترك أهله فى بلد قفر لا أنيس فيه ، فاذا به يصبح مكانا يؤمه الناس من كل صوب ويأتون اليه من كل فج عميق .

وهكذا كانت حياة ابراهيم تحديا للمادية المسرفة الشائعة فى عصره وعبادة الأسباب ، واتخاذها أربابا من دون الله ، ومثالا للايمان بالله وقدرته المطلقة ، وان ارادته فوق كل شىء ، وهكذا كانت سنة الله معه يخضع له الأسباب ويخلق له ما تحار فيه الألباب »(٤) .

تحدى قصة موسى للعقل المادى الضيق :

وتلى قصة ابراهيم قصة موسى فى تحديها الصارخ للعقل المادى الذى ينظر الى الأسباب والحوادث كقوانين أبدية جامدة طبيعية لا سلطان عليها لأحد ، وقوى قاهرة تحكم ولا يحكم عليها ، وجاءت محنة وبلاء للذين ضاق تفكيرهم وكلت أبصارهم عن أن

---

(١) ابراهيم ٣٧ .

(٢) القصص ٥٧ .

(٣) سورة قريش ٣ ، ٤ .

(٤) للمؤلف فى مجلة « المسلمون » ص ١٨٠ ، ١٨١ العددان ٧ ، ٨ سنة ١٣٨١ هـ .

تنظر الى ما هو وراء الأسباب والى من هو فوق الأسباب ، وهنا أستعير ما كتبت فى مقالة لى سابقة أستعرض قصة موسى فى القرآن وما فيها من عبرة وذكرى .

« يولد موسى فى مصر فى بيئة قاتمة خانقة ، قد انطبقت على بنى اسرائيل كل الانطباق ، وسدت فى وجوههم المنافذ والأبواب ، حاضر شقى ومستقبل مظلم ، قلة عدد ، وفقر وسائل ، وذلة نفوس ، عدو قاهر ، وسخرة ظالمة ، لا قوة تدافع ولا دولة تحمى ، أمة مصيرها معلوم محتوم قد خلقت للشقاء والفناء .

ويولد موسى ، وولادته وحياته كلها تحد لفلسفة الأسباب ومنطق الأشياء ، أراد فرعون أن لا يولد فولد ، وأراد أن لا يعيش فعاش ، يعيش فى صندوق خشبى مسدود ، وفى ماء النيل الفائض ، وينشأ فى حضانة العدو ورعاية القاتل ، ويجد به الطلب القوى الساهر ، فيفلت وينجو ويأوى الى ظل شجرة كئيبا غريبا فيجد الضيافة الكريمة ، والزواج الحبيب ، ويرجع بأهله فيلفه الليل المظلم ، والطريق الموحش ، وتمخض زوجه فيطلب لها نارا تصطلى بها فيجد نورا يسعد به بنو اسرائيل ويهتدى به العالم ، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة ، فيجد النجدة والمدد للانسانية كلها ، ويكرم بالنبوة والرسالة .

ويدخل على فرعون فى أبهته وسلطانه ، وفى ملئه وأعوانه وهو المطلوب بالأمس قد تحققت عليه الجناية ، توجهت اليه الدعوى ، وفى لسانه حبسة ، وفى موقفه ضعف ، فيقهر فرعون وملأه بدعوته وايمانه ، وحجته وبيانه ، ويلجأ فرعون الى سحرة مصر ليقهر بفنهم معجزة موسى التى ظنها فنا وسحرا ، فاذا بالسحرة خاضعون خاشعون ، يقولون : « آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون(١) » .

ويؤمر بالخروج ببنى اسرائيل والاسراء فى الليل من أرض الظلم الى أرض النجاة ، وتبعه فرعون بجنوده ، ويصبح موسى ،

(١) الشعراء ٤٧ ، ٤٨ .

والبحر أمامه ، والعدو من ورائه ، ويخوض البحر فينفلق ويكون كل فرق كالطود العظيم ، ويعبر موسى وقومه ويتبعهم فرعون بجنوده فيلتهمهم البحر الهائج .

وهكذا يهلك فرعون وقومه الأقوياء الأغنياء ، ويملك بنو اسرائيل الضعفاء الفقراء « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون(١) » .

مخالفة قصة يوسف للمألوف المعروف :

ولا تقل قصة يوسف فى الغرابة ومخالفتها للمألوف المعروف من جريان الحوادث على السنن الطبيعى ، خاضعة لقانون العلة والمعلول والسبب والمسبب . فقد اجتمع له من حسد الإخوة وكيدهم له والبقاء فى غيابة الجب مدة فى الزمان ، والتقاط السيارة له والرق ، ما هو كفيل بالتعرض للهلاك والأذى والهوان . ولكنه يخرج من كل هذا سليما معافى ، ويعيش ، ويجتمع له من الوقوع فى امتحان شديد ، فى العفة والنزاهة والوفاء والشرف ، ويعتصم مع توفر الدواعى القوية والمغريات القاهرة والاغراء ، من شباب وجمال وطلب والحاح شديد من جانب ، له الفضل وله السلطان وله الاستهواء ، والتصاق التهمة الشنيعة به ، والدخول فى السجن فى تهمة خلقية ، وفى عصر لم يكن السجن فيه الا رمزا للجريمة ، ولم يكن الا مكان الأشقياء ومن سوء القالة والأحدوثة فى البلد ، وقد كان زيادة على كل ذلك غريبا عن مصر لا يتصل بها بجنسية ووطنية ، وكان فردا من شعب ينظر اليه المصريون باحتقار واستخفاف كبير ، وكان الاسرائيلى آخر من يفكر فيه لشرف أو حكومة فى مصر ، كل ذلك كفيل باخمال ذكره واضعاف شأنه واساءة شهرته وحرمانه من كل ثقة وتكريم ، وبعده عن

(١) الاعراف ١٣٧ منقولة من رسالة « ثورة فى التفكير » للمؤلف .

كل مركز محترم ومكان مرموق فى المجتمع المصرى ، فضلا عن امارة وسيادة ، فضلا عن تقليد منصب جليـل ، لا يحظى به الا السيد الكريم ، الحفيظ العليم ، فضلا عن أن يكون سـيد مصر المطاع يأمر وينهى ويرجى ويخشى ، ولكن عكس ذلك يقع بين سمع الناس وبصرهم ويستربع يوسف على أريكة مصر ، ويتقلد مفاتيحها وزمام الأمور فيهـا « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولانضيع أجر المحسنين(١) » .

مماثلة بين قصة يوسف ومحمد صلى الله عليه وسلم :

ان آخر الرسل صلى الله عليه وسلم ومن آمن به ووضع يده فى يده من أفراد قريش كانوا يواجهون مثل هذه الأجواء القاتمة ، ومثل هذه المشكلات ، قلة عـدد ، وضعف شأن ، وفقد أسباب ، وخذلان من العشيرة ، ومحـاربة شديدة من القوم ، ومقاطعـة وتطويق ، واحصار وتضييق وصـد عن سبيل الله ، وتعـذيب شديد للمهتدين الذين كانوا يسمونهم « الصابئين » و« السفهاء » ، وتآمر على قتل الرسول ، ذعر دائم وخوف قائم ، ولا بيان أبلغ من بيان القرآن ، ولا تصوير أدق وأصدق من تصويره ، « واذكروا اذ أنتم قليـل مستضـعفون فى الأرض ، تخافون أن يتخطفـكم الناس »(٢) .

تبشير لرسول الله بالنصر الكريم والمستقبل العظيم :

فى هذه الأجواء القـاتمة التى لا تثير أملا ولا تبشر بمستقبل ، ولا يرى فيها وميض من النور ، قص الله على رسوله قصة يوسف ، وسيرته صلى الله عليه وسلم من أشبه السير به ، وقصته مع قبيلته قريش كقصة يوسف مع اخوته ، حسـد ومحـاربة فى البداية ، واعتراف واجلال وندم فى النهاية ، وابعاد واقصاء ، ونكران وجفاء

(١) يوسف ٥٦ .
(٢) الانفال ٢٦ .

فى الأول ، وخضوع والتجاء واستعطاف واسـتجداء فى الآخـر ، وغيابة الجب فى محنة يوسف ، وغار ثور فى رحلة محمد صلى الله عليه وسلم ، وسجن فى قصة ابن يعقوب وشعب أبى طالب فى قصة ابن عبد المطلب ، وتقرير واعلان من أعداء كل واحد منهما « تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين »(١) والجواب الرفيق الكريم من كلا السيدين الرفيقين الكريمين : « لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »(٢) وقد بدأ القرآن هذه القصة العظيمة بقوله : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن ، وان كنت من قبله لمن الغافلين »(٣) وختمها بقوله « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثـا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(٤) .

وهكذا نزلت هـذه السورة فى جـو مكة الثقيل المظلم ليبشر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمستقبله العظيم المشرق الزاهر ، فكأن قصة يوسف قصته ، ولم تزل الكناية — فى الجو المعـادى الرهيب — أبلغ من التصريح دائما .

انتصار مقرون بانتصار الأمة :

ثم قص الله عليه صلى الله عليه وسلم قصة موسى مع فرعون وملئه ، القصة التى قصها فى سورة القصص ، وهى قصة فوز موسى وسلامته من فرعون وكيده وتشرفه بالرسالة العظمى والنبوة الكريمة ، وهو لا يطمع الا فى نار يصطلى بها وتتدفأ بها زوجه ، وهلاك العدو ونجاة بنى اسرائيل وفوزهم وسيادتهم ، وقد افتتح هذه القصة بمقدمة مجلجلة عظيمة ، كانت جديرة بأن تخلع قلوب

(١) يوسف ٩١ .
(٢) يوسف ٩٢ .
(٣) يوسف ٩٣ .
(٤) يوسف ١١١ .

الأعداء من قريش وتملأها هيبة واشفاقا من مستقبل هذه الجماعة المؤمنة الصغيرة الضعيفة ، التى كانت قريش لا تحسب لها حسابا ، وكانت تريد أن تلتهمها التهاما فقال « طسم ، تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم ، انه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »(١) .

مصدر القوة والثقة والأمل ، للدعاة والعاملين والمؤمنين الصالحين :

ولم تكن هذه القصص البليغة القوية تسلية وتقوية لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب ، كما قال : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين »(٢) بل كانت ولا تزال هذه القصص الصادقة مصدر القوة ورباطة الجأش والأمل المشرق الوطيد ، والثقة القوية بالنجاح والفوز والفلاح والانتصار على المعارضين ، للدعاة والعاملين الذين يعملون على نهج النبوة وعلى طريق الأنبياء ، ويقومون بالدعوة الى الايمان والعمل الصالح وتقوى الله ، ويصبرون على الأذى ويثابرون على الجهاد ، ويرابطون فى سبيل الله ، وقد قال الله تعالى فى قصة موسى « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون »(٣) وقال يوسف مجيبا معللا لما أكرمه الله به من النجاح الخارق للعادة : « قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا، انه من يتق ويصبر ، فان الله لا يضيع أجر المحسنين »(٤) وليعلموا

(١) القصص ١ — ٦ .
(٢) هود ٢٠ .
(٣) الاعراف ١٢٧ .
(٤) يوسف ٩٠ .

ان هذه سنة الله التى لا تتخلف ، وأن الدعوة والكفاح على منهاج الأنبياء والايمان والعمل الصالح والطاعة ، والصبر والسيرة الحسنة الفاضلة شجرة تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، وأن الفرد الضعيف مع هذه الصفات قوى ، وأن العدد القليل مع هذه الأخلاق كثير « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين »(١) « ولا تهنوا ولا تحزنوا ، وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين »(٢) .

ولم تكن هذه القصص مصدر القوة والعبرة للأجيال بعد الأجيال الا بهذا الأسلوب الايمانى القوى ، والا اذا كانت دليلا على أن دعوة الأنبياء هى التى يكتب لها الانتصار والازدهار ، وان الصفات والسيرة والأخلاق التى يرضاها الله هى التى يقدر لها الفوز والفلاح ، مهما عارضتها الأسباب وتألفت ضدها القوى وتداعى عليها الأعداء ، ومهما ضعف أصحاب هذه الدعوة النبوية والسيرة المرضية ماديا « لقد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »(٣) .

اما الايمان بدعوة الأنبياء واما الهلاك والدمار :

ان سيرة الأنبياء التى حكاها الله تعالى فى كتابه فى اجمال تارة وفى تفصيل أخرى ، وذكرها مرارا وتكرارا ، تجمع بينها نقطة لا تختلف . وهى انتصار دعوتهم على جميع المعارضات وفوزهم على أعدائهم ، اما بايمان هؤلاء الأعداء وقبولهم للدعوة واخلاصهم لها وتفانيهم فى سبيلها ، واما بهلاكهم ودمارهم « فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين »(٤) .

(١) البقرة ١٤٩ .
(٢) آل عمران ١٣٩ .
(٣) آل عمران ١٣ .
(٤) الانعام ٤٥ .

لا قيمة للمصالح الفردية والقومية :

وهذه منزلة هذه الدعوة عند الله التى تتوقف عليها سعادة الانسانية ونجاتها ، يخرق الله لها أحيانا نواميس الفطرة وكثيرا من القوانين الطبيعية ويحدث ما لا يخطر على بال ، أما المصالح الفردية أو القومية أو حب العلو والسيادة والطموح والكبرياء ، والزعامات الزائفة التى لا تبنى خيرا ولا تهدم شرا وليس للاسلام والانسانية فيها مصلحة ، وليس لها مع قوى الشر ومع الفساد والكفر والفسوق نزاع ، انما تسعى وتناضل لأن يكون كل هذا الفساد وكل هذه المعاصى تحت سيطرتها واشرافها ، وفى ولايتها وحضانتها ، وأن يعود نفعها اليها ، فلا قيمة لها عند الله ولا تعدل عنده جناح بعوضة ، ولا يبالى الله فى أى واد هلكت وأى عدو تسلط عليها ومتى يفاجئها الموت أو ثورة عارمة جبارة لا ترحم ولا ترثى ، وأزمات ومشكلات لا أول لها ولا آخر .

التفكير الخاطىء السائد :

ان التفكير السائد مع الأسف اليوم فى الشعوب الاسلامية ، وفى أنحاء العالم الاسلامى ، والمنطق المقبول الذى خضعت له جميع الطبقات وآمنت به ايمانا راسخا ، هو أن الميزان الفاصل هو القوة المادية مع كل سيرة وخلق ، ومع كل عقيدة ومنهج للحياة ، وأصبح من عقيدة العاملين وحتى دعاة الدين وهتافهم « المادة قبل كل شىء » وهذا المبدأ هو الذى تنقضه وتبطله سيرة الأنبياء المرسلين ، وما جرى لهم من الحوادث وماظهر على أيديهم من العجائب والمعجزات ، وما أكرمهم الله به من النصر والفتح المبين ، وما فعل بأعدائهم .

وهنا أستعير مرة ثانية ما قلته فى رسالتى « ثورة فى التفكير »

« منذ مدة طويلة بدأنا نزن أنفسنا وقيمتنا ومكانتنا فى خارطة العالم بهذه « الطاقات » و « الامكانيات » وبما نملكه من الوسائل ، والمواد الخام وحاصلات البلاد ومنتجاتها ، وعدد النفوس والقوة

الحربية فنرى كفتنا راجحة فى اقليم ، طائشة فى آخر ، راجحة فى حين ، طائشة فى حين آخر .

ومنذ مدة طويلة آمنا بسيادة الغرب وقيادته ، وأنه أمر مقرر وواقع ليس منه مفر ، وآمنا بأنه وضع لا يقبل التحول والتطور وتحدد المثل القديم وأصبح عقيدة شائعة « **اذا قيل لك أن التتر** انهزموا فلا تصدق » .

وأصبحنا لا نفكر فى معارضة الغرب ومناقشة سيادته وجدارته للسيادة ، واذا فكرنا فى ذلك على حين غفلة من العلوم والدراسة والعقل والكياسة — استعرضنا طاقاتنا ووسائلنا والقوة الحربية فى بلادنا ، وسهمنا من المخترعات الحربية والطاقات الذرية ، فاستولى علينا اليأس والتشاؤم ، وآمنا بأننا لم نخلق الا للخضوع والخنوع ، والعيش على هامش الحياة وعيالا على الغرب ، مرتبطين معقودى النواصى بأحد المعسكرين المتنافسين(١) » .

سلاح المؤمن ومفتاح النجاح والايمان والطاعة :

ولكن ما قص الله علينا من سيرة الأنبياء ومصير أعدائهم فى القرآن ، وقد عرضنا بعض أمثلتها الرائعة فى هذه المحاضرة ، تعارض هذا التفكير على الخط المستقيم ، وتبين لنا بوضوح أن سر انتصارهم والسلاح الذى واجهوا به أعداءهم وانتصرت به جماعتهم الصغيرة المستضعفة . وتبوأت الامامة والزعامة فى العالم هو « الايمان » و « الطاعة » و « الدعوة الى الله » « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون »(٢) و « أوحينا الى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين »(٣) « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا

(١) ثورة فى التفكير ص ٢ ، ٣ .
(٢) ألم السجدة ٢٤ .
(٣) يونس ٨٧ .

الله ينصركم ويثبت أقدامكم »(١) « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم ، وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم »(٢) .

لا مستقبل للأمة الاسلامية الا فى طريق الأنبياء :

هذه رسالة هذه القصص الحكيمة البليغة الصادقة ، وهذا هو الدرس الحكيم الذى تلقيه علينا حياة الأنبياء وسيرتهم الفاضلة ، وهذا هو المنهج الرشيد الذى سار عليه الأنبياء من غير استثناء وسجله عليهم القرآن ، ولا أمل للأمم الضعيفة الا فى هذا المنهج ، ولا مستقبل للأمم التى تؤمن بالمبادىء وتحتضن الدعوات الا فى هذا الطريق ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

(١) سورة محمد ٧ .
(٢) محمد ٣٥ .

المحاضرة الخامسة

عظمة البعثة المحمدية

نكبة العصر الجاهلى :

لم تكن نكبة الجاهلية — هذا العصر الذى أطبق المؤرخون على انحطاطه وسواده — انتشار الكفر والفجور ، والمعاصى والآثام ، والظلم والطغيان ، واهدار كرامة الانسان والاعتداء على حقوقه ، وتغلب الحكومات الجائرة والملوك الجبابرة ، ولم تكن نكبتها قلة عدد الصالحين العابدين لله وضعفهم ، وكل ذلك ما يؤسف له ، ولكنه وقع مرارا فى تاريخ الانسانية الطويل ، وعالجه رجال الاصلاح والدعوة وأهل الضمائر الحية والعزائم القوية فى عصورهم .

ولكن نكبة الجاهلية التى جاءت لازالتها والتغلب عليها البعثة المحمدية التى اختارها الله لمعالجة أعظم نكبة ونكسة للانسانية ، هى فقدان العلم الصحيح من العالم والارادة الخيرة ، وفقدان الجماعة التى تنتصر للحق وتحارب الباطل ، وتصارع الشر وتبنى عالما جديدا .

فقدان العلم الصحيح :

لقد فقد العلم الصحيح الذى يعرف به الانسان ربه معرفة صحيحة ويصل به الى خالقه ، ويعبد به عبادة خالصة مرضية ، حتى اذا

وجدت الاردة الصحيحة القوية والطب الصادق لم ينتفع به صاحبه ، وكل علم وجد فى هذا العصر مشوب بالجهل ممزوج بالخرافة ، محرف عن الأصل ، خطؤه أكثر من صوابه ، وضرره أكبر من نفعه .

فقدان الارادة الخيرة القوية :

واذا وجد هذا العلم الصحيح على ندرته فى صدر من صدور العلماء ، أو فى كتاب من كتب الحكماء ، أو كأثارة من علم نزل قديما من السماء . لم تجد الارادة الخيرة القوية التى تلتقطه من مكانه ، وتعض عليه بالنواجذ وتتغلب به على شهوات نفسه ومعارضة بيئته ، فقد فقدت عاطفة الطلب لله والبحث عن الحق ، وكلت العزائم والقوى فى هذا الطلب ، وانصرفت الى طلب المعاش وارضاء الشهوات وتحقيق مطالب النفس ، وطاعة السلاطين العمياء ، والاستماتة فى سبلهم ، وانطفأت جذوة الحب وبردت مجامر القلوب . واستحوذ عليها حب الدنيا ، وما بقى من مظاهر الدين فاما وثنية خرافية ، واما تقاليد سطحية .

فقدان الجماعة التى تنتصر للحق :

« واذا وجد العلم الصحيح والارادة الخيرة لم توجد الجماعة التى يلتجئان اليها فى الشدة ، ويستمدان منها القوة عند الضعف ، فضاعا فى جهود فردية واصلاحات شخصية ، وكان هؤلاء الأفراد — الملتجؤون الى الكنائس والأديار أو المغارات وقمم الجبال — مصابيح احترقت ذبالتها ، ونفذ زيتها ، وخفت نورها ، أو كيراعات تطير فى ليلة شاتية مطيرة مظلمة ، لا يهتدى بها المسافر التائه ، ولا يتدفأ بها الفقير المقرور .

الحاجة الى طلوع شمس جديدة :

أما العلم الصحيح الذى يهدى الناس الى فاطر هذا الكون وصفاته اللائقة به وأسمائه الحسنى ، ويصلهم به صلة جديدة

قوية ، ويملأ العقول يقينا جديدا ، والقلوب حبا شديدا ، وينفى تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، ويخرج الناس من الظلمات الى النور ومن الشك الى اليقين ، فلم يكن الا علما محفوظا غضا طريا منزلا من السماء حديث عهد بربه ، وكانت النبوة الجديدة وحدها هى التى تستطيع — باذن الله — أن تغير هذا الوضع الفاسد المحيط بالانسانية كلها ، ويردع أهل الشرك والوثنية من خرافتهم ، وأهل الكتب من اليهود والنصارى والمجوس من تحريفهم وجهالتهم ، ويعترفون هم جميعا — اذا أنصفوا وخافوا الله — بأن النجوم قد أفلت ، وأن شمسا جديدة قد طلعت ، وأن الصباح قد أغنى عن المصباح ، « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة ، رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة(١) » .

تعاون الفلسفة والوثنية على اضعاف الايمان واضلال الانسان :

وكانت الارادة الخيرة القوية خاضعة دائما للعلم الصحيح والايمان القوى ، فاذا آمن الانسان بحقائق وآمن بمضار ومنافع وخاف ورجا ، ورغب ورهب تعبت ذلك ارادته وطاوعته أعضاؤه واستجابت له قواه ، ولكن فقد الايمان القوى فى العصر الجاهلى وشك الانسان فى وجود الله وفى وجود الآخرة وفى وجود الجنة والنار ، وفى نتائج أعماله وتصرفاته ، وتعاونت الفلسفة والشرك على ضعاف هذا الايمان واضعاف رابطة العبد وربه ، أما الأولى فبالالحاح الشديد على نفى الصفات ، وأما الثانى فيصرف هذه الصفات الى المخلوقات ، فمن آمن بالأولى لم ير حاجة للالتجاء والخوف والطمع من هذا الخالق الذى تجرد عن كل صفة وعن كل قدرة ، وعن الرحمة والمحبة ، ومن آمن بالثانى تشاغل بالمخلوقات والالتجاء اليها ولم يرحاجة أو لم يجد فراغا للالتجاء الى رب لا يرى بالأبصار، قد تنازل لكثير من خلقه فى أمور العباد .

وهكذا توزع العالم فى معسكرين معسكر لا يجد فى نفسه اندفاعا وداعية للالتجاء والدعاء والسعى للآخرة ، ومعسكر لا يجد

(١) سورة البينة ١ — ٣ .

فرصة للسؤال من رب الأرباب ، ووجد كلاهما مرتعا خصيبا في العصر الجاهلي ، وهكذا ضاعت الانابة المودعة في قلب الانسان، وضاعت القوى الغنية المودعة في أعضاء الانسان ، جحود وخمود ، وفي وثنية وخرافة ، وفي عبادة النفس والسلطان ، والطاغوت والشيطان ، وعكف العالم الانساني كله من الشرق الى الغرب على عبادة أصنام وآلهة قد تخيلها أو توارثها ، أو مقاصد وغايات ومثل عليا في الحياة قد اخترعها وفرضها على نفسه ، وحق عليهم كلهم قول ابراهم قال « اتعبدون ما تنحتون(١) » .

لا يغير الوضع الجاهلي الا الايمان النبوي القوي العالمي :

ولم يكن لغير نبي مؤيد من الله صاحب قوة قدسية وشخصية نبوية أن يعيد هذا الايمان الضائع ، المفقود من قرون متطاولة الى قلب الانسان ، ويشغله بطلب جديد وحب جديد ، ويصرف ارادته القوية من طلب الدنيا الحلوة الخضرة ، وتحقيق مطالب النفس العزيزة اللذيذة ، وارضاء السلاطين الأقويان الأغنياء ، الى طلب الله تعالى الذي لا تدركه الأبصار ، وافناء قواه في مرضاته ، وبذل المهجة والنفس والنفيس في سبيله ايمانا بوعوده وطمعا في ثواب الآخرة ، انه يحتاج الى ارادة لا تثنيها الجبال ، ولا ترهنهامعارضة الجن والأنس ، « لو وضعت الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك في طلبه(٢) » ارادة اقتضتها الرحمة الالهية بالانسان ، فلابد أن تقوى وتتحكم ، ولابد أن تتحقق وتتم ، انه يحتاج الى ايمان لو وزع على العالم كله وعلى الانسانية كلها لوسعها ، وبدل شكه يقينا ، وضعفه قوة ، ايمان كان ينطق على لسان صاحبه في ساعة تخرس فيها الألسن وتزيغ فيها الأبصار ، وقد قام الأعداء الألداء على وجه الغار ، ويقول

(١) الصافات ٩٥ .

(٢) من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤٣ .

« لا تحزن ان الله معنا(١) » وكان يرى من أمد بعيد وفي ظلام شديد ، في يد سراقة الفقير البدوي سواري كسرى امبراطور فارس ، وكان يرى في جوع قدمس ، وحصار قد طال ، في شرارة صخرة الخندق التي كسرها القصر الأبيض لقيصر الامبراطور الثاني ، انه لا يمكن تغيير هذا الوضع الجاهلي العالمي واعادة الحياة واليقين والحماسة الدينية اليه الا بهذا الايمان القوي النبوي ، والا بهذه الارادة الالهية للانسان بالخير « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين(٢) » هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون(٣) » .

الحاجة الى أمة تبعث للاصلاح والكفاح الدائم :

وكان هذا الفساد أعظم وأوسع من أن يتداركه أفراد منتشرون ومصلحون موزعون ، أو عصابة قوية او مؤسسة غنية ، فقد اتسع الخرق على الراقع ، وم الوادي على القرى ، انما كان ذلك عمل أمة تبعث وتتصل وتستمر وتكافح وتناضل وتنتشر في أرض الله ، وتتحدى الباطل أينما كان ، وتجتث الشر أينما وجد ، وتملأ أرض الله قسطا وعدلا ، كما ملات ظلما وجورا ، وكان العالم في حاجة الى بعثة نبي من أعظم الأنبياء مقرونة ببعثة أمة من أقوى الأمم ، وهكذا كان ، « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله (٣) » .

هذه كانت البعثة المحمدية — أيها الاخوان — جاءت في أوانها وفي شدة حاجة الانسانية اليها « وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها

(١) سورة التوبة ٤٠ .

(٢) الصافات ٩ .

(٣) الصف ٩ .

(٤) آل عمران ١١٠ .

الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيـج . ذلك بأن الله هو الحق وانه يحيى الموتى ، وانه على كل شيء قدير(١) » .

تأثير البعثة المحمدية :

« واذا بهذه الجثة البشرية الهامدة — التى كانت تسمى النسل الانسانى — يدب فيها دبيب الحياة . واذا بهذا الجسد الميت يهتز اهتزازا تتزلزل به أوكار الطيور التى قد عششت عليها ، وباضت وفرخت ، وهى تحسب انها ميتة لا حراك بهـا ، واذا بيـوت العناكب تتفتت وتتساقط ، وذلك ما يعبر عنه أصحاب السير والروايات فى لغتهم المحدودة بارتجاج أيوان كسرى وخمود نار المجوس ، أما رأيتم كيف تتناثر المبانى المجصصة والبروج المشيدة كأوراق الخريف بحركة من باطن الأرض فيضطرب بها ظهر الأرض ، فكيف لا تتزلزل نظم كسرى وقيصر ، وما بناه فراعنة العصر ببعثة النبى الأعظم صلى الله عليه وسلم وطلوع فجر السعادة والعدل فى العالم (٢) » .

مولد عـالم جديد :

لم يكن مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثته مولد نبى فحسب ، أو مولد أمة فحسب ، أو مولد عصر فحسب ، انما كان مولد عالم جديد بدأ من ولادته وبعثته ، وسيبقى الى أن يرث الله هذه الأرض ومن عليها ، وقد تسربت آثار بعثته الى هـذا العالم وتغلغلت فى أحشائه ، وخضع لها هذا العالم فى عقيدته وفى أسلوب تفكيره ، وفى مدنيته ، وفى أخلاقه واجتماعه ، وفى علمه وثقافته ، حتى لا يمكن تجريده عنهـا ، ولو جرد منهـا لحرم أغنى ثروة يملكها وأعظم قوة يعتز بها ، ولنكص على أعقابه ، ورجع الى

(١) الحج ٥ ، ٦ .
(٢) معقل الانسانية للمؤلف ص ٢ ، ٣ .

الوراء ، وهو يدين له فى حياته لأن بعثته صلى الله عليه وسلم هى التى منحته حق الحياة ومدت فى أجله ، وغلبت قوى الخير على قوى الشر ، وأنقذته من سخط الله الذى أحـاطه ولعنة الله التى حقت عليه ، والشؤم الذى أظله ، وكان جديرا — قبـل بعثته — بأن يطوى بساطه وينقض أساسه « ظهر الفساد فى البر والبحـر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا ، لعلهم يرجعون(١) » (ان الله نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من أهل الكتاب(٢)) .

تصوير العصر الجاهلى :

وماذا رأى فى الأرض — وهو العليم الخبير — لم ير الا ساجدا لوثن أو عابدا لبطن وخاضعا لسلطان أو مطيعا لشيطان ، أما الدين الخالص ، أما الطلب الصادق ، أما العلم الصحيح والعمل الصالح ، أما الاخبات الى الله ، والسعى للآخرة فأندر من الكبريت الأحمر وأغرب من العنقاء المغرب ، وصدق شيخ الاسلام أحمد ابن عبـد الرحيم الدهلوى اذ قال ، ولم أر تصـويرا أدق للجاهلية منه :

« اعلم أن العجم والروم لما توارثوا الخلافة قرونا كثيرة ، وخاضوا فى لذة الدنيا ونسوا الدار الآخرة واسـتحوذ عليهم الشيطان وتعمقوا فى مرافق المعيشة وتباهوا بها ، وورد عليهم حكماء الآفاق يستنبطون لهم دقائق المعيشة ومرافقها ، فما زالوا يعملون بها ويزيد بعضهم على بعض ويتباهون بها ، حتى قيل انهم كانوا يعيرون من كان يلبس من صناديدهم منطقة أو تاجا قيمتها دون مائة ألف درهم أو لا يكون له قصر شامخ وآبزن(٣) وحمام وبساتين ، ولا يكون لهم دواب فارهة وغلمان حسان ولا يكون

(١) سورة الروم ٤١ .
(٢) حديث شريف .
(٣) فسـقية .

له توســـع فى المطاعم وتجمل فى الملابس ، وذكر ذلك يطول ، وما تراه من ملوك بلادك يغنيك عن حكاياتهم ، فدخل كل ذلك فى أصول معاشهم وصـــار لا يخرج من قلوبهم الا أن تمزج وتولد من ذلك داء عضال ، دخل فى جميع أعضاء المدينة وآفة عظيمة ، ولم يبق منهم أحد ، من أسواقهم ورستاقهم وغنيهم وفقيرهم ، الا قد استولت عليه وأخذت بتلابيبه وأعجزته فى نفسه وأهاجت عليه غموما وهموما لا ارجاء لها ، وذلك أن تلك الأشياء لم تكن لتحصل الا ببذل أموال خطيرة ولا تحصل الا بتضعيف الضرائب على الفلاحين والتجار وأشباههم ، والتضييق عليهم ، فان امتنعوا قاتلوهم وعذبوهم وان أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبقر يستعمل فى النضـــح والدياس والحصاد ، ولا تقتنى الا ليستعان بها فى الحاجات ثم لا تترك ساعة من العناء حتى صاروا لا يرفعون رؤوسهم الى السعادة الأخروية أصلا ولا يستطيعون ذلك ، وربما كان أقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه(١) » .

اتجاه عالمى جديد :

وقد غيرت البعثة المحمدية هذا الوضع وقلبته رأسا على عقب ، فاكتسحت العالم المتمدن كله . موجة قوية من الايمان والطلب لله ، والجهاد فى سبيله والسعى للآخرة وادالة الانسانية من أعدائها ، وانهاض الأمم من كبوتها ، واخراج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، واتجهت الى هذه الغاية همم أهل العزائم وكفاية أهل المواهب ، وذكاء الأذكياء ، وسليقة الأدباء ، وقريحة الشعراء ، وسيوف الأقوياء ، وأقلام العلماء ، وعبقرية النبغاء ، وكثر فى هذا العالم الذى لم يكن يعرف غير ضرب واحد وغير طراز واحد من الانسانية ، وهو عابد النفس وأسير الشهوة وصريع الهوى ، كثر فى هذا العالم فى كل عصر وفى كل بقعة عباد مخلصون ، وعلماء ربانيون ، وحكام عادلون ، وملوك زاهدون ،

(١) حجة الله البالغة (باب اقامة الارتفاقات واصلاح الرسوم) .

وأبطال مجاهدون ، لا يحصيهم كثرة من أحصى رمال عالج وحصى البطحاء ، يباهى بهم الله الملائكة ويقف أمامهم التاريخ خاشعا ، والأعداء مقنعى رؤوسهم ، وانتشر العلم الصـــحيح النافع ، والعمل الفاضل الصالح ، والارادة الخيرة القـــوية ، والجماعة المؤمنة المجاهدة ، التى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وتجاهد فى سبيل الله ، ولا تخاف لومة لائم ، واتصـــل تاريخ الاصلاح والجهاد والدعوة والارشاد لا تتخلله فترة « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون(١) » .

الأمة المحمدية معجزة الرسول :

وقد أحسن شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تصوير أثر البعثة المحمدية وفضلهـــا وانتاجها فى كتابة « الجواب الصحيح » يقول رحمه الله :

«وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من آياته ، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته ، وأمته من آياته ، وعلم أمته ودينهم من آياته ، وكرامات صالحى أمته من آياته » ..

ولم يزل قائما بأمر الله على أكمل طريقة وأتمها ، من الصدق والعدل والوفاء ، لا يحفظ له كذبة واحدة ولا ظلم لأحد ، ولا غدر بأحد ، بل كان أصدق الناس وأعدلهم وأوفاهم بالعهد مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم ، وأمن وخوف ، وغنى وفقر ، وقلة وكثرة . وظهوره على العدو تارة ، وظهور العدو عليه تارة ، وهو على ذلك كله ملازم لأكمل الطرق وأتمهـــا ، حتى ظهرت الدعوة فى جميع أرض العرب التى كانت مملوءة من عبـــادة الأوثان ومن أخبار الكهان وطاعة المخلوق فى الكفر بالخالق وسفك الدماء المحرمة وقطيعة الأرحام ، لا يعرفون آخرة ولا معادا ، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينهم وأعدلهم وأفضلهم ، حتى ان النصارى لمـــا رأوهم

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٠٨٧ .

من حين قدموا الشام قالوا ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء ، وهذه آثار علمهم وعملهم فى الأرض وآثار غيرهم ، يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين .

وأمته اكمل الأمم فى كل فضيلة ، فاذا قيس علمهم بعلم سائر الأمم ظهر علمهم ، وان قيس دينهم وعبادتهم وطاعتهم لله بغيرهم، ظهر انهم ادين من غيرهم ، واذا قيس شجاعتهم وجهادهم فى سبيل الله وصبرهم على المكاره فى ذات الله . ظهر انهم اعظم جهادا واشجع قلوبا،واذا قيس سخاؤهم وبذلهم وسماحة انفسهم لغيرهم تبين أنهم أسخى واكرم من غيرهم ، وهذه الفضائل به نالوها ومنه تعلموها وهو الذى أمرهم بها ، لم يكونوا قبله متبعين لكتاب جاء هو بتكميله كما جاء المسيح بتكميل شريعة التوراة ، وكانت فضائل اتباع المسيح وعلومهم ، بعضها من التوراة وبعضها من الزبور وبعضها من النبوءات ، وبعضها من المسيح

وأما أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكونوا قبله يقرأون كتابا بل عامتهم ما آمنوا بموسى وعيسى وداوود ، والتوراة والانجيل، والزبور الا من جهته ، فهو الذى أمرهم أن يؤمنوا بجميع الأنبياء ويقروا بجميع الكتب المنزلة من عند الله ، ونهاهم أن يفرقوا بين أحد من الرسل فقال تعالى فى الكتاب الذى جاء به « قولوا آمنا بالله الى قوله وهو السميع العليم (١)(٢) » .

(١) البقرة (٢) ملتقط من « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » .

المحاضرة السادسة

مأثرة النبوة المحمدية

أهمية الانسان :

ان مصير العالم لم يزل ولا يزال مربوطا بناصية الانسان ، وفيه سر سعادته وشقائه فاذا وجد الانسان الحقيقى وفقد كل ما يعتز به هذا العالم من ثروة وزينة وجمال ، لم يكن رزءا كبيرا أو خسارة فادحة ، وكان وجود الانسان الحقيقى خلفا لكل فائت ، وعوضا عن كل مفقود ، وسندا لكل عوز ، وأعاد الانسان الى العالم بنشاطه وحيويته وانتاجه وعزيمته كل ما فقده هذا العالم ، أجمل وأكمل ، وأكثر وأوفر ، واذا خير هذا العالم أو من يهمه أمره بين الانسان من غير شىء وبين كل شىء من غير الانسان ، واستعمل عقله وما وهبه الله من قوة الرشد والتمييز لكانت خيرته « الانسان » من غير شك ومن غير تردد ، فالانسان هو الذى خلق له هذا العالم وبسببه نال هذه القيمة والشرف .

ليس شقاء هذا العالم فى فقد الآلات والوسائل ، ان شقاءه فى سوء استعمالها وفى وضعها فى غير محلها ، ان سبب كل نكبة نكب بها هذا العالم فى تاريخه الطويل الملىء بالأحداث ، هو

ضـــلال الانسان وانحرافه عن الجادة المستقيمة ، وعن فطرته السليمة ، أما القوى والوسائل فلم تكن الا آلات صماء بريئة فى يده تمتثل أمره وتنفذ رغباته ، واذا كانت لها جناية فهى أنهـا ضمت الى هذه النكبة سرعة فى الوصول والانتشار ، وسعة فى المساحة والامتداد .

اسرار الفطرة الانسانية وعجائبها :

ان هذا الكون الواسع ملىء بالأسرار ملىء بالعجائب ، وان جماله ليبهر الألباب ، ويثير الدهشة والاستغراب ، ولكنه اذا قيس بأسرار الفطرة الانسانية وعجائبها ، وكنوزها ودفائنها ، والى سـعة القلب الانسانى وبعـد أغواره ، والى سمو الفكر الانسانى وسعة آفاقه ، والى لوعة الروح الانسانية وتقلقها الى آماله البعيدة التى لا تكاد تنتهى ، والى طموحه الذى لا يشبع ولا يرضى بأعظم مقدار من الفتوح واللذات والخيرات والمسرات ، والملك والسيادة ، والنعيم والسعادة ، والى مواهبـه المتنوعة المتناقضة ، الواســعة الكثيرة التى لا تعـد ولا تحـد ، كان هذا الكون الواســع أمامه قطرة من بحر أو ذرة من صحراء ، وغاب فى سعة القلب الانسانى وأعماقه كما تغيب الحصاة الصغيرة فى البحار العميقة الزاخرة ، ان الجبال تتضاءل أمام ايمانه الواثق الراسخ ، وأن النار لتنطفىء وتحتقر نفسها أمـام حبه الولوع الوهاج ، وان البحار لتخجل أمام دمعة طاهرة انحدرت من عين الانسان خشية لله ، أو رحمة على ضعيف ، أو ندامة على تفريط ، ان الانسان اذا تجلى جمال سيرته وحسن خلقه ورقة عاطفته أزرى بكل جمال فى هذا العالم ، وبهر كل حسن فى هـذا الكون انه واسطة العقد وبيت القصيد ، وأعظم آية من آيات الخـلاق المبدع الحكيم ، الذى خلقه فى أجمل صورة وأكمل سيرة وأحسن تقويم .

الانسان فوق كل مساومة وتقويم :

ان العالم بما فيه من خزائن وكنوز ، وثروات وحكومات ، لا يستطيع أن يقوم عقيدة الانسان التى لا تعرف الشك والضعف .

والحب الذى لا يعـرف المـادة والأشـكال ، والعطف الذى لا يعرف الفوارق والحدود ، والأخلاص الذى لا يعرف الأغراض والمنافع ، والأخلاق التى لا تعرف المساومة وجزاء الشر بالشر ، والخدمة المخلصة التى لا تريد جزاءا ولا شكورا ، ان الانسان اذا عرف نفسه وطلب قيمته عجز العالم عن مساومته ، واذا اتسـع وأرخى لعزيمته وخواطره العنان ، وأرسل النفس على سجيتها ، ضاق هـذا العالم وانضوى حتى أصبح قفصا صغيرا لا هواء فيه ولا نور ، انه لا تسبر أعماقه ، ولا يبلغ أغواره ، ولا يحاط بأسراره ، ولا تكتنه حقيقته ولا تنفـذ عجائبه ، عامه وحلمه ، وكرمه ونبله ، ومحبته ورحمته ، وعطفه واحسانه ، ورقة شعوره ودقة احساسه ، وايثاره وزهده واعتداده بكرامته، ونفيه لذاته واستعداده القريب لمعرفة ربه ، والتفانى فى سبيل مرضاته ، وفى سعادة بنى نوعه ، وتلقيه لكل علم دقيق عميق ، ولكل علم مفيد جديد ، كل ذا مما تحار فيه الألباب ، ويقصر عنه ذكاء الأذكياء .

مأثرة النبوة المحمدية :

ان وجود هـذا الانسان مفتاح كل سعادة وخير ، وحل كل أزمة ومشكلة ، وأن تقويمه اذا زاغ وتهذيبه اذا فسد ، وتكثيره اذا عز وندر ، واعادته اذا ضاع وفقد . موضوع كل نبوة ، ومهمة كل نبى فى عصره ، وان وجـود هؤلاء الأفراد بهـذه الكثرة وبهذا الانتشار وفى صورة أتم لم يسمع بمثلها فى التاريخ ولم تقع عليها عين السماء ولم تطلع عليها الشمس ، وأن انخراطهم فى سلك واحد ، واجتماعهم فى شمل واحد ، ثم تعاونهم الوثيق على مبدأ واحد ، وهدف واحد ، مأثرة النبوة المحمدية ومعجزتها الكبرى .

ان محمدا صلى الله عليه وسلم بدأ عمل تكوين الأفراد وتهذيب الانسان من مستوى لم يبدأ نبى أو مصلح عمله منه ولم يكلف به ، لأنه وجـد مستوى أرفع منه بكثير ، وبلغ صلى الله عليـه وسلم بهذا العمل الى مستوى لم يبلغ عمـل نبى اليه ، بدأ من

مستوى تنتهى هنالك الحيوانية وتبتدىء منه الانسانية ، وبلغ به الى مستوى هو منتهى الانسانية ، ولا منزلة فوقه الا النبوة ، وقد ختمت بمحمد صلى الله عليه وسلم .

واقع أجمل من الخيال والشعر :

ان كل فرد من هؤلاء الأفراد معجزة مستقلة وآية من آيات النبوة ، ومأثرة من مآثرها الخالدة ، وبرهان ساطع على أشرفية النوع الانساني ، ان مصورا لم يصور بريشته البارعة ومخيلته السخية صورة أجمل وأبدع من ما كان عليه هؤلاء الأفراد فى عالم الحقيقة والواقع ، وفى شهادة التاريخ ، وان شاعرا لم يتخيل بخياله الخصيب وقريحته الفياضة ومقدرته الشعرية ، أوصافا أجمل وسيرة أعطر ، وجمالا أكمل ، مما وجد فى هؤلاء الأفراد ، ولو اجتمع أدباء العالم فى صعيد واحد فعرضوا نموذجا انسانيا رفيعا لم يصل بهم الخيال الى ما وصل اليه الواقع فى حياة هؤلاء الأفراد ، الذين نشأوا فى حجر النبوة وحضانتها ، وتخرجوا فى مدرستها ، ان ايمانهم الراسخ ، وعلمهم العميق ، وقلبهم البار ، وحياتهم البعيدة عن كل تكلف وصناعة ، وعن كل رياء ونفاق ، وتجردهم من الأنانيـة ، وخشيتهم لله وعفتهم ونزاهتهم وعطفهم على الانسان ، ورقة مشاعرهم وشجاعتهم وجلادتهم ، وحرصهم على العبادة ، وحنينهم الى الشهادة ، وفروسيتهم وفنونهم واحياءهم الليل ، وزهدهم فى حطام الدنيـا وزخارف الحيـاة ، وعدلهم وسهرهم على مصالح الرعية وايثار راحتها على راحتهم ، كل ذلك لا يوجد له نظير فى الأمم ولا سوالف فى التاريخ .

الفرد الصالح فى مختلف مظاهره ومجالات الحياة :

ابرز رسول الله صلى الله عليه وسلم برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله ، الخائف من عقاب الله ، الخاشع الأمين ، المؤثر للآخرة على الدنيا ، المستهين بالمـادة ، المتغلب عليهـا بايمانه وقوته الروحية ، يؤمن بأن الدنيـا خلقت له وأنه خلق

للآخرة ، فاذا كان هذا الفرد تاجرا فهو التاجر الصدوق الأمين ، واذا كان فقيرا فهو الرجل الشريف الكادح ، واذا كان عاملا فهو العـامل المجتهـد الناصح ، واذا كان غنيا فهو الغنى السخى المواسى ، واذا كان قاضيا فهو القاضى العادل الفهم ، واذا كان واليا فهو الوالى المخلص الأمين ، واذا كان سيدا رئيسا فهـو الرئيس المتواضع الرحيم ، واذا كان خادما أو اجيرا ، فهو القوى الأمين ، واذا كان أمينا للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم .

اللبنات التى قام عليها المجتمع الاسلامى :

وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الاسلامى وتأسست الحكومة الاسلامية فى دورها ، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال الا صورة مكبرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم ، فكان المجتمع مجتمعا صالحا أمينا مؤثرا للآخرة على الدنيـا ، متغلبا على المـادة غير محكوم لهـا ، انتقل اليه صدق التاجر وأمانته ، وتعفف الفقير وكدحه ، واجتهاد العـامل ونصحه ، وسخاوة الغنى ومواساته ، وعدل القاضى وحكمته ، واخلاص الوالى وأمانته ، وتواضـع الرئيس ورحمته ، وقوة الخـادم ، وحراسة الخـازن ، وكانت هذه الحكومة حكومة راشـدة مؤثرة للمبادىء على المنـافع ، والهداية على الجباية ، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة ، كلها ايمان وعمل صالح ، وصـدق واخلاص، وجد واجتهاد ، وعدل فى الأخـذ والعطاء ، وانصاف مع النفس والغير(١) » .

نجاح هذا الفرد فى المحن والتجارب :

أن هـذا الفرد قد نجح فى كل اختبار ومحنـة تظهر مواطن الضعف ، وتبرز كوامن النفس ، وبرز فيها كالابريز الخـالص

(١) من رسالة « من غار حراء » للمؤلف .

والتبر المسبوك ، لا غش فيــه ولا زيف ، وأبرز فى كل موقف دقيق محرج من قوة الايمــان وقوة الارادة وقوة النفس وتأثير التربية النبوية ، ومن رقة العاطفة ومن دقة الشعور بالمسئولية ومن المستوى الرفيع للأمانة والزهادة والايثار ، ما لم يتوقعه علماء النفس والأخلاق ، ومن جربوا الانسان وكتبوا تاريخه فى العصور والأزمان المختلفة .

وكان من أدق هذه المواقف موقف الأمير والحاكم الذى ليس مسئوولا أمام أحــد ، ولا تراقبــه عين ، ولا تناقشه محكمة أو لجنة ، يزهد فى ما أبيح له وفى خاصة ماله ، وفى النزر اليسير التافه الذى أتاحته الشريعة وجرى به العرف ، واستهان به الناس فى كل زمان .

زهد الولاة وتقشفهم فى الحياة :

ومن أروع الأمثلة لذلك أن امرأة أبى بكر الصديق خليفة المسلمين اشتهت حلوا واستفضلت من نفقتها من عدة أيام ما تشتريه به ، فلما علم ذلك رد الدريهمات الى بيت المــال وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل منها لثمن الحلوى ، لأنه ليس من الحــاجات التى يعيش عليها الانسان وليس بيت مال المسلمين لتترفه به أسرة الحاكم وتتوسع به فى المطاعم .

وهنا تصوير أمين لموكب الخــلافة ، وحكاية رحلة رسـمية فى مصلحة حكومية لحاكم من أقوى الحكام فى ذلك العصر ، ومن أوسعهم مملكة ، والذى كان اسمه يخلع القلوب ويرجف البوادر من بعيد ، ونترك المؤرخ يحكى هذه الرحلة العجيبة ويصورها بقلمه البليغ .

« قدم عمر بن الخطاب الجابية على طريق ايليا على جمـل أوراق ، تلوح صلعته للشمس ليس عليه قلنسوة ولا عمامة ، تصطفق رجلاه بين شعبتى الرجل بلا ركاب ، وطأه كساء انبجانى ذو صوف ، هو وطأة اذا ركب ، وفراشه اذا نزل ، حقيبته نمرة

أو شملة محشوة ليفا ، هى حقيبته اذا ركب ، ووسادته اذا نزل، وعليه قميص من كرابيس قد رسم وتخرق جنبه ، فقال ادعوا لى رأس القوم فدعوا له الجلومس فقال اغسلوا قميصى وخيطوه وأعيروا لى ثوبا أو قميصا ، فأتى بقميص كتان فقال ما هــذا ؟ قالوا كتان ، قال وما الكتان ؟ فأخبروه فنزع قميصه فغسل ورقع وأتى به ، فنزع قميصهم ولبس قميصه ، فقال له الجلومس أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الابل ، فلو لبست شيئا غير هذا وركبت برذونا لكان ذلك أعظم فى أعين الروم ، فقال نحن قوم أعزنا الله بالاسلام فلا تطلب لغير الله بديلا ، فأتى ببرذون فطرح عليه قطيفته بلا سرج ولا رحل ، فركبه بها فقال احبسوا احبسوا ما كنت أرى الناس يركبون الشيطان قبل هــذا فأتى بجمله فركبه(١) » .

وروى البرى قال : « خرج عمر وخلف عليا رضى الله عنهما على المدينة وخرج معه بالصحابة وأغذوا السير واتخذ ابلة (على ساحل البحر الأحمر) طريقا حتى اذا دنا منها تنحى عن الطريق ، واتبعه غلامه فنزل فبال ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فرو مقلوب ، وأعطى غلامه مركبه ، فلما تلقاه أوائل النــاس ، قالوا أين أمير المؤمنين ؟ قال أمامكم ! (يعنى نفسه) فذهبوا الى أمامهم فجاوزوه ، حتى انتهى هو الى ابلة ، فنزلها وقيل للمتلقين: قد دخل أمير المؤمنين ابلة ونزلها فرجعوا اليه(١) » .

نموذج انسانى رائع :

ان هذه الملامح والقسمات الجميلة الرائعة من زهد وتواضع ، وايثار وعطف ومواساة ، وشجاعة وعدل ، وحكمة وصدق ، منتشرة فى وصف الخلفاء الراشدين وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو جمعها مؤرخ أو أديب أو عالم من علماء النفس والأخلاق ، وكون منها شخصية واحدة أو صورة موحدة لكانت

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) الطبرى ج ٤ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ .

من أسمى السير البشرية ، ومن أجمل الصور الانسانية فى المصور الانسانى الكبير ، وفى المعرض البشرى التاريخى العالمى ، ولكننا اذا لم نجد مع الأسف وصفا كاملا شاملا وتصويرا جامعا لهذه الجماعة الفريدة التى أبرزتها للعالم تربيـــة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبته،فاننا نجد وصفا لبعض الشخصيات يتسم بالبلاغة وحسن التصوير ودقة التعبير ، وقد عرف العرب قديما باجادة الوصف ، وبلاغة التصوير ، وصـــدق التعبير ، وبهذا الوصف نستطيع أن نستعرض آثار التربية النبوية ومدى نجاحها وابداعها، ونرى نموذجا رفيعا لهذا الجيل الذى ظهرت فيه معجزة الرسول فى أروع مظاهرها . وهى صفة على بن أبى طالب عم الرسول ورابع الخلفاء الراشدين ، الذى نشأ فى بيت الرسول وفى حضانته وتربيته ، وهي قطعة تستحق أن تعتبر من أجمل القطع الأدبية العالمية الخالدة تأثيرا وتعبيرا وتصويرا ، قال ضرار بن ضمرة وقد طلب منه الخليفة معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه أن يصف له على بن أبى طالب الذى صحبه طويلا وعرفه من قرب فقال :

« والله كان بعيد المدى شـــديد القوى ، يقول فصـــلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه ومن نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، ويعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشب ، كان ــ والله ــ كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ، ويبتدئنا اذا أتيناه ، ويأتينا اذا دعوناه ، ونحن ــ والله ــ مع تقريبه لنا وقربه منا ، لا نكلمه هيبة ولا نبتديه ، فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهـــل الدين ويحب المساكين ، ولا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه ، وغارت نجومه ، وقد مثل فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين وكأنى أسمعه وهـــو يقول :

يا دنيا ! أبى تعرضت أم لى تشوفت ! هيهات هيهات غرى غيرى قد باينتك ثلاثا لا رجعة فيك ! فعمرك قصير ، وعيشــك

حقير وخطرك كبير ! آه من قلة الزاد وبعد الســفر ، ووحشة الطريق(١) !

الجيل الاسلامى الاول :

وبالجملة فقد كان هذا الجيل الذى أنشأته دعوة الرســول صلى الله عليه وسلم . وأحكمته تربيته من أفضل الأجيال البشرية فى تاريخ الانســان كله ، وأجملها وأكملها وأجمعها للمحاسن الانسانية ، وقد وصفه أحد أفراده ، عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ببلاغة نادرة وكلمات موجزة عميقة دقيقـــة ، زاخرة بالمعانى الكبيرة البعيدة المدى ، فقال « أبر الناس قلوبا وأعمقهم علما وأقلهم تكلفا ، اختارهم الله لصحبة نبيه واعزاز دينه(٢) » .

واذا قورن هذا الجيل بجيل آخر رجح عليه فى المجموع وكانت مآخذه مما لا يخلو منه بشر ضئيلا فى جنب محاسنه ومظاهره العظيمة البشرية ، وروائع الكمالات الخلقية التى يخلو عنها التاريخ الانسانى ، وقد كان شيخ الاســلام ابن تيمية بليغا ودقيقــا فى قوله :

« وخيار هذه الأمة هم الصحابة فلم يكن فى الأمة أعظم اجتماعا على الهدى ودين الحق ، ولا أبعد عن التفرق والاختلاف منهم ، وكل ما يذكر عنهم مما فيه نقص فهذا اذا قيس الى ما يوجد فى غيرهم من الأمة كان قليلا من كثير ، واذا قيس ما يوجد فى الأمة الى ما يوجد فى سائر الأمم كان قليلا من كثير ، وانما يغلط من يغلط انه ينظر الى السواد القليل فى الثوب الأبيض ، ولا ينظر الى الثوب الأسود الذى فيه بياض وهذا من الجهل والظلم (٣) .

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى .

(٢) رواه الدرامى فى مسنده .

(٣) منهاج السنة ج ٣ ص ٣٢٤ .

تأثير الرسالة المحمدية فى الأجيال المتأخرة :

ولم يكن تأثير دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعليماته وتأثير المثل العالية التى عرضها فى سيرته وسيرة أصحابه ، وطالب بها أتباعه من بعده ، لم يكن تأثير شخصيته التى ظلت ولا تزال المثل الكامل والنبراس المضىء المرشـد الدائم لجميع الأجيـال فى جميع الأحوال ، قاصرا على العهد الذى بعث فيه والجيل الذى أدركه وسعد بصحبته ، انما كان الشمس التى تونع فى نورها وحرها الزرع والأشجار فى جميع الأعصار والأمصار ، وترسل أشعتها وخطوطها الذهبية الحـافلة بالقوة والحيوية من مكانها العالى ، فينتفع بها القاصى والدانى ، لأن دعوته الى الايمان بالله واليوم الآخر ، واسـتحضار رقابة الله والخوف من سـخطه وعقابه ، والطمع فى أجره وثوابه ، والأشفاق من النار ، والحنين الى الجنة ، وسيرته صلى الله عليه وسلم فى الزهد فى حطام الدنيا ، والرغبة فى الآخرة ، والشظف فى العيش ، وايثار الناس على نفسه وأسرته وعشـيرته ، فى ما يرفعهم ويعينهم ، وكلما كان الرجل أبعد كان فى الايثار أحق وأقرب ، وكلما كان أقرب كان فى المنافع واللذائذ أبعد ، وفى الجهاد والمشقة والتضحية أقرب ، وكان أخذه بمكارم الأخلاق والأحاسيس الدقيقـة الرقيقة التى لا يتخيلها الأذكياء ، ولا يخطر من علماء النفس والأخـلاق على بال ، كان كل ذلك مدرسة جامعة عالمية خالدة ، ينسب اليهـا ويلتحق بها أجيال بعد أجيال ، ويتخرج فيها علماء وزعماء وملوك وحكام وعباد وزهاد ، كلهم تلقوا فيها دروس الأخلاق والانسانية الأولية ثم فاقوا فيها ، وبذوا العالم والأمم فى سمو أخلاقهم ولطافة حسهم ورقة شعورهم ، ودقة أمانتهم ، وكثرة زهادتهم ، على تملكهم لأسباب البذخ والترف ، ومفاتيح الخزائن وأزمة الدول ، ومصير الشعوب والأمم ، يخضع لهذا التأثير أفراد يتفاوت بهم الزمان ويبعد بهم المكان ، ولكنهم مزرع الايمان ، وغرس النبوة ، وثمرة الدعوة الاسلامية ، ومأثرة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانتاجها . وكل حسن فى سيرتهم وأخلاقهم مقتبس من مشكاة النبوة المحمدية العالمية ، لامنة لآبائهم وبيئتهم وثقافتهم وذكائهم على هؤلاء الأفراد فى هذه العقيدة ، وفى هذه السيرة ، وفى هذه

الأخلاق ، فلولا دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعليماته ولولا حبهم العميق له وخضوعهم لتأثير سيرته ولولا فضل الاسلام لكانوا فى العقيدة عباد الأصـنام ، وفى الأخلاق أشبه بالسـباع والأنعام ، لا توحيد ولا تقوى ، ولا زهد ولا ايثار ، ولا رقة عاطفة ولا كرم خلق .

بعض تلاميذ المدرسة المحمدية العالمية الخالدة وأمثلة من حياتهم وأخلاقهم :

وخذوا أحد تلاميذ هذه المدرسة وخريجها ، ومما غرسته النبوة المحمدية بعيدا عن مهد الاسـلام ، وعن جزيرة العرب ، بعيدا عن عهد الرسالة والصحابة ، بعيدا عن الأصل المضرى ، والدم العربى ، وهو السلطان صلاح الدين بن أيوب الكردى العجمى فى القرن السادس الهجـرى(١) يقول عنه صديقه ورفيقه ابن شداد :

انه ملك ما ملك ومات ولم يوجد فى خزانته من الفضـة الا سبعة وأربعون درهما ناصرية ، ومن الذهب الا جرام واحـد صورى ، ما علمت وزنه .

ورايته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف وكان قد عزم على التوجه الى دمشـق ولم يكن فى الخزانة ما يعطى الوفود فلم أزل أخاطبه فى معناهم حتى باع أشياء من بيت المال ، وفضضنا ثمنها عليهم ، ولم يفضل درهم واحدا .

وكان رحمه الله يعطى فى وقت الضـيق كما يعطى فى حال السعة وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئا من المال حذرا أن يفاجئهم مهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه ، وسمعته يقول فى معرض حديث جرى ، يمكن أن يكون فى الناس من ينظر الى المال

(١) توفى صلاح الدين عام ٥٨٩ هـ .

كما ينظر الى التراب ، فكأنه أراد بذلك نفسه رحمه الله تعالى ، وكان يعطى فوق ما يؤمل الطالب ، فما سمعته يقول أعطينا لفلان(١) .

ولما مات هذا السلطان العظيم الذى كان يحكم من حدود الشام الشمالية الى صحراء النوبة فى الجنوب ، لم توجد فى خزانته ما يكفنونه به وينفقون على تجهيزه يقول ابن شداد :

« ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه ، فما أمكننا أن ندخل فى تجهيزه ما قيمته حبة واحدة الا بالقرض ، حتى فى ثمن التبن الذى بلت به الطين ، وأخرج بعد صلاة الظهر فى تابوت مسجى بثوب فوط وكان ذلك وجميع ما احتاج اليه من الثياب فى تكفينه قد أحضر القاضى الفاضل من وجه حل عرفه (٢) .

ويتحدث مؤرخه الانجليزى الشهير (Stanley Lanpool) فى كتابه المشهور (صلاح الدين) فيقول :

اذا لم يتيسر للعالم أن يعرف شيئا عن صلاح الدين غير ذلك الكرم وتلك السماحة التى عامل بها أهل القدس المسيحيين الأعداء حين فتحه ورده للاسلام كان ذلك كافيا ليثبت أنه لم يكن أعظم رجل فى عصره فحسب فىعلو الهمة وفى العظمة والشهامة والفتوة، بل كان أعظم رجل فى هذا الشأن فى كل عصر وزمان (٣) .

ولم يزل هذا التأثير قويا سخيا بعيد المدى واسع الأرجاء والآفاق ، يصنع عجائبه ويظهر روائعه فى بلاد تقع فى أقصى العالم الاسلامى ، وفى شعوب حديثة العهد بالاسلام ، وفى رجال لا يتصلون بدعاة الاسلام الأولين فى نسب أو لغة أو ثقافة ،

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية لابن شداد ص ٣٥١ .

(٣) أيضا ص ٢٠٥ .

يسلم أحدهم على يد داعية اسلامى ، أو مرشد روحانى وينشأ فى أولاده وأحفاده الأقربين ملك فى صورة ملك وزاهد فقير فى لباس ملك ، خشية وتقوى ، وعدل وقسط ، وعطف ومواساة ، ورحمة وبر ، واحتساب ونية ، وصدق واخلاص ، لا توجد أمثلته فى زهاد الأمم الأخرى وأحبارها ورهبانها فضلا عن ملوكها وسلاطينها ، واقتصر هنا فى تاريخ الهند الاسلامى الطويل الزاهى بهذه النماذج الرفيعة ، على قصة واحدة لا تبلى جدتها وطرافتها ، ولا تنتهى روعتها على مر الأيام وكثرة الاعادة والتكرار .

كان بين السلطان مظفر الحليم ملك كجرات (م ٩٣٢ هـ) وبين معاصره السلطان محمود الخلجى ملك ماندو منافسة قديمة ، وقد كان الخلجى معتديا مهاجما دائما يزحف بجيوشه على مملكة كجرات الاسلامية ، التى يحكمها مظفر الحليم ، ويضطر الحليم الى الدفاع من ملكه ورد الغارة عليه ، حتى حدث ما غير الوضع وجعل من الملك المعتدى المدل بقوته وأبهته طريدا لاجئا يطلب من عدوه الكريم النفس الغوث والنجدة ، فقد استولى على ملكه الواسع الجميل وزيره الوثنى مندلى رأى واغتصب بلاده ، ولم يجد السلطان محمود ملجأ الا فى عطف عدوه القديم مظفر الحليم وفى حميته الاسلامية ، فلقى منه من البر والكرم وحسن الاجابة وسرعة الاغاثة ما لا يصدر الا عن رجل لا تأخذه حمية الجاهلية ولا يؤمن بالفلسفة المادية « الانتهازية » فلم يستغل هذا الوضع ولم يشمت بالعدو السليب الضعيف ، بل انتهز هذه الفرصة لارضاء الله وحده ولاخزاء الشيطان ، فتقدم بجيوشه الكثيفة المنصورة الى مندو ، واهتم بقضيتها كقضية بلاده بل أكثر ، وجازف بحكومته وحرية بلاده فى سبيل المحافظة على حرية بلد اسلامى منافس ، واعادة الاسلام الى مركزه واعتباره فى هذه الدولة ، وتقدمت القوات البرهمية والأمارات الوثنية الى اغاثة صديقها مندو ، ووقعت حرب طاحنة مجنونة كثر فيها القتلى ، وسالت الأزقة بالدماء الغزيرة ، حتى استولى مظفر الحليم على البلاد وهزم العدو هزيمة منكرة ، وأحرقت الأميرات الوثنيات والحرم الملكى أنفسهن على عادة ملوك راجبوات ، وعادت البلاد الى الاسلام .

وهنا تجلى النبل الانسانى والخلق الاسلامى فى أروع مظاهره ، فقد أشار أهل الرأى من قادة الجيش على الملك المظفر المنصور أن يحتفظ بهذه البلاد الجميلة الغنية الزاهية ، لقصورها البديعة التى لا يوجد لها نظير فى الهند ، وقلاعها الحصينة وخزائنها الحافلة وخيراتها الدارة ، وقد ذهبت ضحية سفاهة الملك الراعن الضعيف ، وقد فتحها الملك فتحا جديدا واسترقها فاستحقها ، والملك للقوة والغلبة ، والبلاد للمنتصر .

ولما سمع الملك هذا الرأى وعرف ما تحدث به القادة نفوسهم ، أرسل الى السلطان يأمره بأن لا يأذن لأحد فى جيشه فى دخول البلد ، وسأله السلطان البقاء فى القلعة ، والاستجمام فيها مدة من الزمان ، فلم يقبل وأمر جيوشه بالانصراف الى أحمد آباد والعودة الى ثكناتها ، وقال للخلجى اننى لم أتقدم الى هذه البلاد الا لرضا الله تعالى وحده ، وطمعا فى ثوابه وعملا بقوله « وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر(١) » والمسلم أخو المسلم لا يسلمه ولا يخذله(٢) وقد تحقق ذلك وبيض الله وجهى ووجهك وبيض وجه الاسلام ، وقد سمعت من أصحابى ما لو عملت به لحبط عملى وضاع جهادى ، والفضل لك ليس لى ، فقد أكرمتنى وكنت سببا فى هذه السعادة ، وأنا قافل الى بلادى لا أريد أن أحبط عملى وأخلط عملا صالحا وآخر سيئا . وهنا تحرك الجيش المنصور اللجب ، ورفع الفرسان أعنة خيلهم وانصرفوا راشدين .

وبعد أن فتح المظفر « مندو » ودخل محمود فى البلد عزيزا مكرما ، أخذ صديقه المظفر ليتنزه ويطلع على ما فى هذا البلد من خيرات وخزائن وجواهر وتحف ، فكان الأمر عجيبا وكان البلد آية فى الجمال والخصب والثروة وكثرة الترف وكثرة الجوارى الحسان والفتيات البارعات فى الجمال ، والسلطان مظفر مطرق رأسه غاض بصره لا ينظر لا الى هذا المال ولا الى هذا الجمال ، فقال له محمود وهو يمر بصديقه أمام الأميرات والحشم وبين

(١) الانفال ٧٢ .
(٢) معنى الحديث .

الزوجات والحرم ، وهن يستقبلن الفاتح المحسن ويحيينه بثغور بواسم : مالك يا سيدى لا ترفع رأسك ولا تنظر الى هذا المنظر!؟ فقال المظفر انه لا يحل لى يا محمود وقد قال الله « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » فقال الملك الذكى انهن امائى وأنا عبدك قد أسرتنى وملكتنى باحسانك فهم عبيد وهن اماء لك مرتين ، ولكن مظفر لم يقتنع بهذا الجواب اللبق وعرف أن ما حرمه الله لا يحله أحد .

وهكذا أثبت الملك الورع كرم نفسه وعفة باطنه وروحه ، وشدة خضوعه لتأثير الاسلام ولتأثير المثل العليا الاسلامية التى نشأ على حبها والتمسك بها فى حياته .

انه رجل يغيب نسبه الاسلامى بعد واسطتين أو ثلاث فى دياجير الكفر والجاهلية الهندية ، ويفقد المؤرخ النسابة الأسماء الاسلامية بعد جده الذى أسلم فى أيام فيروز تغلق فى القرن الثامن الهجرى ، وتفاجئه أسماء عجمية هندية ، لا يعرف أصلها ولا يفهم معناها ، فلم يتعلم مظفر هذا النبل وهذا الورع الا فى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم التى دخلها مخلصا جادا مقدرا للاسلام نعمته ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم فضله ورفده ، مقبلا على هذا الدين بشغف واجلال ، كارها للدين الذى كان عليه آباؤه وأبناء قبيلته وأسرته .

انتاج هذه المدرسة المباركة الدائم فى كل الأمم وفى جميع العصور:

وكم لهذه المدرسة المباركة المنجبة المنتجة من أبناء كرام بررة فى بلاد الشرق والغرب ، وفى بلاد العرب والعجم ، وفى قرون متقدمة ومتوسطة ومتأخرة ، وكم لهؤلاء الأبناء البارين العظماء من مآثر وبطولات ومحامد ومكارم فى كل ناحية من نواحى الحياة الانسانية ، وقد تجلى تأثير تربيتها وفضل مؤسسها فى فتوة طارق ، وشهامة محمد بن القاسم ، وهمة موسى بن نصير ، وذكاء أبى حنيفة والشافعى ، وصلابة مالك وأحمد بن حنبل ،

وكرم نور الدين ، وعزم صلاح الدين ، وعبقرية الغزالى ، وروحانية عبد القادر الجيلانى ، وتأثير ابن الجوزى ، وطموح محمد الفاتح ، ومغامرات محمود الغزنوى ، ورقة عاطفة نظام الدين الدهلوى ، وسماحة فيروز شاه الخلجى ، وتبحر ابن تيمية الحرانى ، وحسن ادارة شير شاه السورى ، وقوة ارادة أورنك زيب التيمورى ، وفى معارف شرف الدين يحيى المنيرى ، وحقائق أحمد بن عبد الأحد السرهندى، ودعوة محمد عبد الوهاب التيمى، وحكمة أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى ، ومن جاء بعدهم من الدعاة والمصلحين والعلماء الربانيين ، وان الفضل فى كل هذه العبقرية وفى مآثرهم العلمية والعملية الخالدة يرجع الى تعليمات هذه المدرسة وتربيتها ، والى العهد الزاهر الجديد الذى افتتح ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، ووجدت فيه المواهب الانسانية الفائقة سبيلها ومجال نشاطها ، ووجد من يستخدمها وينتفع بها، ولا تزال هذه المدرسة — مهما قسا عليها الزمان وتنكر لها المتنكرون — تنجب أفذاذا فى التاريخ وتؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، وتغيث الانسانية بقادة مخلصين ، وعلماء ربانيين « أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » ولسان الغيب يهتف : « فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين » .

الفهرس

المحاضرة الأولى

النبوة حاجة الانسانية اليها وفضلها على المدينة

الموضوع الصفحة

المحاضرة الثانية

سمات النبوة وخصائص الأنبياء

الموضوع الصفحة

المحاضرة الثالثة

ائمة الهدى وقادة الانسانية

المحاضرة الرابعة

بين الارادة الالهية والأسباب المادية

الموضوع — الصفحة

المحاضرة الخامسة

عظمة البعثة المحمدية

الموضوع — الصفحة

المحاضرة السادسة

مأثرة النبوة المحمدية

الموضوع	الصفحة

مطابع الاهـرام التجارية

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٤ / ٤١٢٤